عمـارة مسجد النبي عليه السلام ودخول الحجرات فيه

دراسة عَقَدية

إعداد :
علي بن عبدالعزيز بن علي الشبل
غفر الله له ولوالديه وللمسلمين

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمــة :

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادي له ، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله □ ، وعلى آله وصحبه وسلم تسليماً .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ)[آل عمران : 102] .

(يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَتَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيباً)[النساء : 1] .

(يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً . يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعْ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً)[الأحزاب : 70 ، 71] .

أما بعد :

فإن دور المسجد في الإسلام دور محوري في العلم والدعوة والعمل ، ولهذا أول ما شرع به النبي □ لما قدم المدينة تأسيس المسجدين : مسجد قباء ومسجده النبوي والمنوه عنهما بقوله تعالى : (لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَى مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُواْ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ)[التوبة : 108] .

فالمسجد شعار الإسلام والسنة ، وعمارته علامة الإيمان والحكمة : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ)[التوبة : 18] .

وعمارة النبي □ لمسجده مرتين ثم توسعة الخليفة عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان رضي الله عنهما له كانت له دلالة عظيمة ، إلا أن في عمارة الوليد بن عبد الملك الخليفة الأموي في آخر المائة الأولى نقلة نوعية في تلكم العمارة ، تمثلتا بإدخاله الحجرات ومنهن حجرة أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها : المشتملة على قبر النبي □ وقبر صاحبيه أبي بكر وعمر رضي الله عنهما . وكذا في المبالغة في تشييد بناء المسجد وزخرفته مشابهة لأهل الكتاب ، فكان موقف التابعين النكارة وعدم الرضى بهذا الصنيع . فجاء هذا البحث في

استقراء هذه العمارة فما بعدها من العمارات على مدى التاريخ ، والتنبيه على المآخذ العقدية في هذه الورقات والبحث سميتها :

« عمارة مسجد النبي عليه السلام ودخول الحجرات فيه دراسة عقدية »

متناولًا الشبه التي يتعلق بها القبوريون في تسويغ بناء المساجد على الأضرحة أو دفن قبور الصالحين والأولياء داخل المساجد ، والرد عليها .

فجاء هذا البحث مشتملاً على مقدمته -وهي هذه- وفيها حمد الله والثناء عليه والتوطئة بأهمية الموضوع ، ثم خطة البحث المتبعة فيه . وهي على النحو التالي :

توطئة وتمهيد : في زخرفة المساجد وتزويقها وحكمها في الإسلام .

تلتها عدة مباحث :

المبحث الأول : بناء النبي لمسجده بالمدينة وتوسعته له . وضمن بناؤه حجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن جنوب المسجد وشرقية إلى الشمال .

المبحث الثاني : عمارة أمير المؤمنين عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسجد وزيادته فيه . وفي ضمن الرد على مثلبة الروافض : لِمَ لَمْ يوسع أبو بكر الصديق رضي الله عنه المسجد .

المبحث الثالث : عمارة أمير المؤمنين عثمان بن عفان رضي الله عنه وزيادته في المسجد ، وفي ضمن الرد على الخوارج الغوغائية في تشعيبهم عليه رضي الله عنه .

المبحث الرابع : عمارة الوليد بن عبد الملك بن مروان للمسجد ، والتنبيه على الـمُحْدَثات فيها .

المبحث الخامس : إنكار السلف إدخال الوليد الحجرات في بناء المسجد : ومعه أيضاً إنكارهم الزخارف والتشييد في عمارته!

المبحث السادس : عمارة المهدي بن المنصور للمسجد .

المبحث السابع : عمارة السلطان المماليك قايتباي وما فيها من المحدثات . وأهمها تشييد القبة على الحجرات ، ووضع الأستار على جدار القبر .

المبحث الثامن : عمارة السلطان العثماني عبد المجيد للمسجد ، وما فيها من البدع .

المبحث التاسع : التأثر بالحضارات السابقة في عمارة المسجد النبوي .

ثم أفردت المحدثات في بناء المسجد النبوي عبر هذه العصور لا سيما عمارة السلطان عبد المجيد ، بمجرد وصفي ، منبهاً إلى هذه البدع والمحدثات بحسب المشاهدة .

ثم جاءت الخاتمة مشتملة على أهم التوصيات والاقتراحات .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد وشر الأمور محدثاتها فكل محدثة بدعة ، وكل بدعة ضلالة ، وما كان في هذا البحث من حق وصواب فهو من توفيق ربي وهدايته ، وعونه ومدده ، وما كان سوى ذلك فمني ومن الشطان ، وأعوذ بالله منه ، وأستغفره من ذلك ، وهو سبحانه ولي التوفيق والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات .

تمهيد : زخرفة المساجد وتزويقها وحكمها في الإسلام

حث القرآن الكريم والسنة المطهرة وقام الإجماع على وجوب عمارة المساجد لله وحده لا شريك له ؛ تحقيقاً لتوحيده والإيمان به ، قال تعالى : (مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُواْ مَسَاجِدَ اللهِ شَاهِدِينَ عَلَى أَنفُسِهِمْ بِالْكُفْرِ أُوْلَئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ)[التوبة : 17] ، وقال عز وجل : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلاَةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلاَّ اللَّهَ فَعَسَى أُوْلَئِكَ أَن يَكُونُواْ مِنَ الْمُهْتَدِينَ)[التوبة : 18] ، فنفى سبحانه عمارة أهل الشرك والضلال لمساجده ، وحصرها على أولئك الذين آمنوا به وباليوم الآخر ، وعمارة المسجد تكون أولاً ببنائه ، ثم بعمارته بإقامة ذكر الله وشعائره فيه[1] .

وفي الصحيحين أن النبي قال : « من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » ، والبناء يشمل الأمرين بناء حقيقي ومعنوي كما سبق .

لكن ورد على المسلمين البدع في زخرفة المساجد وتزويقها وتزينها بما لا حاجة فيه ، بل والتكاليف الباهضة في هذا ، مع التباهي والمتفاخر ببنائها من أهل الدنيا الذين لم يرجوا ما عند الله والدار الآخرة ، وبعضهم جهلاً يظن أن هذا من الأمر بالزينة عند المساجد كما في سورة الأعراف (يَا بَنِي آدَمَ خُذُواْ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وكُلُواْ وَاشْرَبُواْ وَلاَ تُسْرِفُواْ إِنَّهُ لاَ يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ)[الأعراف : 31] ، وهذا فهم لا يصح من الآية ، ولم يُعرف عن السلف من الصحابة والتابعين أعلم الناس بالقرآن ومعانيه ودلالات ألفاظه ، فإن الأمر بالزينة المراد به ستر العورات عند المساجد ؛ لأن طائفة من المشركين كانوا يطوفون بالبيت عرياناً ، كما روي عن غير واحد من أئمة السلف[2] ، وكذا المراد الطهارة بالوضوء الشرعي .

ولا يفهم أن الزينة هي إظهار الزخرفة والنحت والتزويق في مساجد الله كما هو حال أكثر مساجد المسلمين اليوم ، لورود النهي عن ذلك صريحاً في السنة وفي أقوال كبار الصحابة أئمة الهدى

وسبق لنا أن التباهي في بناء المساجد والعناية بزخرفتها وتزينها بالكتابات الرسوم وأمثال ذلك هو من التشبه بأهل الكتاب من النصارى لحديث عائشة عن أم حبيبة وأم سلمة رضي

---

(1) انظر تفسير ابن كثير 2/340-341 .

(2) انظر تفسير ابن كثير 2/210 .

الله عنهم أنهما ذكرتا لرسول الله كنيسة رأتها بأرض الحبشة وما فيها من التصاوير فقال : « إن أولئك إذا مات فيهم العبد الصالح أو الرجل الصالح بنوا على قبره مسجداً ، وصوّروا فيه تلك الصور ، أولئك شرار الخلق عند الله » متفق عليه[1] .

قال ابن تيمية : فهؤلاء جمعوا بين فتنتين : فتنة القبور وفتنة التماثيل .

ولما في الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله في مرضه الذي لم يقم منه ، وفي رواية أنه كان يفرج على وجهه خميصة فإذا اغتم بها كشفها عن وجهه وقال : « لعن الله اليهود والنصارى اتخذوا قبور أنبيائهم مساجد » .

قالت : ولولا ذلك لأبرز قبره ، غير أنه خشي أن يتخذ مسجدا[2] . وهؤلاء النصارى إما مساجدهم فيها يدفنون قبور صالحيهم ، أو يجعلون قبورهم معابد لهم على سبيل تعظيم والغلو فيهم .

وجاء في أبي داود وغيره عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : قال رسول الله : « ما أمرت بتشييد المساجد » . قال ابن عباس : لتزخرفنَّها كما زخرف اليهود والنصارى[3] .

والتشييد : بناؤه بالجص وزخرفته وتطور له .

وجاء في البخاري معلقاً ، أن عمر بن الخطابرضي الله عنه أمر ببناء المسجد وقال : « أكنَّ الناس من المطر ، وقال : إياك أن تُحمِّر أو تُصفِّر -(أي : الطلاء الملون ؛ لما فيه من الزخرفة المنهي عنه والمشغلة عن العبادة)- فتفتن الناس » .

وقال أنس : « يتباهون بها ثم لا يعمرونها إلا قليلًا » .

وقال ابن عباس رضي الله عنهما : « لتزخرفنا كما زخرفت اليهود والنصارى »[4] .

---

(1) رواه البخاري في أبواب المساجد ، باب هل تنبش القبور.... 165/1 ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن البناء على القبور رقم 528 .

(2) البخاري في الجنائز ، باب ما جاء في قبر النبي وأبي بكر وعمر رضي الله عنهما 468/1 ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب النهي عن بناء المساجد على القبور رقمها 529 .

(3) انظر سنن أبي داود في كتاب الصلاة ، باب في بناء المساجد 122/1 رقم 148 ، وشرح السنة للبغوي 348/2 رقم463 .

(4) انظر البخاري ، كتاب المساجد ، باب بنيان المسجد 171/1 ، وذكر حديث ابن عمر في وصف بناء =

قال البغوي في معنى كلام ابن عباس رضي الله عنهما : إن اليهود والنصارى إنما زخرفوا المساجد عندما حرّفوا وبدلوا أمر دينهم ، وأنتم تصيرون إلى مثل حالهم ، وسيصير أمركم إلى المراءات بالمساجد والمباهاة بتشييدها وتزينها . قال أبو الدرداءرضي الله عنه : « إذا مليتم مصاحفكم ، وزوقتكم مساجدكم ، فالدمار عليكم »[1] .

والنهي عن زخرفة المساجد والمبالغة فيها لأجل الفتنة بها عن المقصود من عمارتها ، وهو عبادة الله بهذه الصلاة والذكر... روى مسلم عن عائشة رضي الله عنها قالت : « كان رسول الله يصلي في خميصة ذات أعلام ، فنظر إلى علمها فلما قضى صلاته قال : اذهبوا بهذه الخميصة إلى أبي جهم ابن حذيفة ، وائتوني بإنبجانية ، فإنها ألهتني آنفاً عن صلاتي »[2] . والإنبجانية : كساء من صوف ليس له علم . فالمراد : أن الثوب لما أشغل الرسول عن صلاته لما فيه من الأعلام أبعده عنه فما بالك بهذه المساجد التي تكون فيها كأنك بمتحف للخطوط والزخرفة والرسوم . والله المستعان . إن الخطب أشد والفتنة أكبر .

وذكر شيخ الإسلام في « الاقتضاء » عن سعيد بن منصور بسنده إلى إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذؤيب قال : « دخلت مع ابن عمر رضي الله عنهما مسجداً بالجحفة ، فنظر على شرفات فخرج إلى موضع فصلى فيه ، ثم قال لصاحب المسجد : إني رأيت في مسجدك هذا -يعني : الشرفات- شبهتها بأنصاب الجاهلية ، فمرَّ أن تكسر »[3] .

ولا شك أن زخرفة المساجد وتزويقها من التباهي بها والتفاخر ، وهذا معدود من أشراط الساعة ، كما في حديث أنس رضي الله عنه قال : قال رسول الله : « من أشراط الساعة أن يتباهى الناس في المساجد » . رواه النسائي وغيره[4] . وفي رواية لأحمد عنه : « لا تقوم الساعة حتى يتباهى الناس في المساجد » . فهو على سبيل التحذير والتنبيه من عدم

=

الرسول لمسجده وعمر وعثمان وقد سبق .

(1) « شرح السنة » 350/2 .

(2) رواه مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب كراهة الصلاة في ثوب له أعلام رقم 556 .

(3) « اقتضاء الصراط المستقيم » 344/1 .

(4) النسائي في كتاب المساجد ، باب المباهاة في المساجد 32/2 . ورواه أبو داود في كتاب الصلاة ، باب بناء المساجد 123/1 رقم 449 ، وابن ماجه رقم 739 ، وصححه الألباني . وانظر « شرح السنة » 350/3 ، وانظر « فتح الباري » 642/1 .

زخرفة المساجد والمباهاة بها ، لكن نرى المباهاة بالمساجد واضحاً في هذه الأزمان .

ولا يفوتني الإشارة إلى الزخارف الكثير في سقف المسجد وجدره العلوية وأعمدته في العمارة الأخيرة من عمارة خادم الحرمين للمسجد النبوي ، بل المسجد الحرام وما يكثر إطراؤه في وسائل الأعلام عنها ، حتى عدَّها الكثير من المباهاة في بناء المسجدين ، فلا بد من التنبه لهذا والنصح لله ولرسوله ولأئمة المسلمين لتعينه على أهل العلم بالخصوص . والله أعلم . وصلى الله على عبده ورسوله محمد وسلم .

المبحث الأول : بناء النبي لمسجده بالمدينة :

بنى النبي مسجده أول ما قدم مهاجراً إلى المدينة ، وكان لهذا سبب وقصة ، أخرجها الشيخان بسندهما عَنْ أَنَس ٍرضي الله عنه قَالَ : « قَدِمَ النَّبِيُّ الْمَدِينَةَ فَنَزَلَ أَعْلَى الْمَدِينَةِ ، فِى حَيٍّ يُقَالُ لَهُمْ بَنُو عَمْرِو بْنِ عَوْفٍ ، فَأَقَامَ النَّبِيُّ ρ فِيهِمْ أَرْبَعَ عَشْرَةَ لَيْلَةً[1] ، ثُمَّ أَرْسَلَ إِلَى بَنِي النَّجَّارِ فَجَاءُوا مُتَقَلِّدِى السُّيُوفِ ، كَأَنِّى أَنْظُرُ إِلَى النَّبِيِّ ρ عَلَى رَاحِلَتِهِ ، وَأَبُو بَكْرٍ رِدْفُهُ ، وَمَلأُ بَنِى النَّجَّارِ حَوْلَهُ ، حَتَّى أَلْقَى بِفِنَاءِ أَبِى أَيُّوبَ -أي : ألقى راحلته ورحله وترك هناك- وَكَانَ يُحِبُّ أَنْ يُصَلِّيَ حَيْثُ أَدْرَكَتْهُ الصَّلاَةُ ، وَيُصَلِّي فِى مَرَابِضِ الْغَنَمِ ، وَأَنَّهُ أَمَرَ بِبِنَاءِ الْمَسْجِدِ ، فَأَرْسَلَ إِلَى مَلإٍ مِنْ بَنِى النَّجَّارِ -وجاء في بعض الروايات أن الفناء ليتيمين هما سهل وسهيل ابني رافع من بني النجار وأرسل الرسول لهما أو لوليهما- فَقَالَ : يَا بَنِى النَّجَّارِ ثَامِنُونِى بِحَائِطِكُمْ هَذَا ، قَالُوا لاَ وَاللَّهِ ، لاَ نَطْلُبُ ثَمَنَهُ إِلاَّ إِلَى الله » ، وجاء في بعض الروايات : « أنه أبى إلا أن يأخذوا ثمنه ودفع ثمنه الصديق رضي الله عنه عشرة دنانير ذهبية . فَقَالَ أَنَسٌ : فَكَانَ فِيهِ مَا أَقُولُ لَكُمْ ، قُبُورُ الْمُشْرِكِينَ ، وَفِيهِ خَرِبٌ -أي : جمع خربة وهي البناء المنهدم- وَفِيهِ نَخْلٌ ، فَأَمَرَ النَّبِيُّ ρ بِقُبُورِ الْمُشْرِكِينَ فَنُبِشَتْ ، ثُمَّ بِالْخَرِبِ فَسُوِّيَتْ ، وَبِالنَّخْلِ فَقُطِعَ ، فَصَفُّوا النَّخْلَ قِبْلَةَ الْمَسْجِدِ ، وَجَعَلُوا عِضَادَتَيْهِ الْحِجَارَةَ -وهما ما يشد البناء من حواليه بالنسبة للداخل فيه- وَجَعَلُوا يَنْقُلُونَ الصَّخْرَ ، وَهُمْ يَرْتَجِزُونَ ، وَالنَّبِىُّ ρ مَعَهُمْ وَهُوَ يَقُولُ :

اللَّهُمَّ لاَ خَيْرَ إِلاَّ خَيْرُ الآخِرَهْ فَاغْفِرْ لِلأَنْصَارِ وَالْمُهَاجِرَهْ »[2]

وجاء في صفة بنائه له : أنه بناه باللبن والطين والحجارة ، فجعل أساسه من الحجارة ، وجعله جداره من اللبن ، والطين يجعلها متزاوجة ، ورفعه إلى ارتفاع سبعة

---

(1) وهم أهل قباء ، ثم غادرهم متجهاً إلى المدينة فصلى الجمعة - ــ وهي أول جمعة صلاها بالمدينة - ــ في بني عوف : بني سالم بن عوف وبنو النجار أخوال أبيه رضي الله عنهم .

(2) متفق عليه ، أخرجه البخاري في كتاب المساجد ، باب هل تنبش قبول المشركين...165/1 . مسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب بناء مسجد النبي ' رقم 524 . انظر « فتح الباري » 624/1-627 ومواضع أخرى منه تكرر فيها الحديث . انظر « تحقيق النصرة » للمراغي ص 38-45 .

أذرع ، وجعل أعمدته من جذوع النخل التي قطعت من الأرض ، وضعت في قبلة المسجد ، وكان سقف المسجد من الجريد والخصاف وطينوه بالطين يكنُّهم من الحر والمطر .

وجاء في بنائه الحديث المشهور عند الفقهاء -أعني : بناءه بالطين واللبن- وهو حديث طلق بن علي الحنفي اليمامي رضي الله عنه ، وذلك أنه قدم من اليمامة على النبي وهو يبني المسجد فعمل معهم ، وكان صاحب طين وعلاج ، فأخذ المسحاة وجعل يخلط الطين ، والنبي ينظر إليه ويقول : « إن هذا الحنفي لصاحب طين » .

وروى الإمام أحمد عن طلق بن علي رضي الله عنه أنه قال : « بنيت المسجد مع رسول الله فكان يقول : قربوا اليمامي من الطين ، فإنه أحسنكم له مسكاً ، وأشدكم له سكباً ، قال : وكان صاحب علاج وخلط طين »[1] .

وكان المسجد بعد البناء على صفة صحن مكشوف في وسطه ، وله في الشمال والجنوب رواقان على صفة ظلتين . وكان مساحة هذا البناء -وهو الأول - 70 ذراعاً × 60 ذراعاً .

---

(1) انظر « تاريخ الخميس » 344/1 ، وقد جمع فيه الآثار الواردة في صفة بناء النبيّ للمسجد 343/1-348 . وانظر كذلك « خلاصة الوفاء » للسمهودي من ص 208-231 فقد جمع هو الآخر حشداً من الروايات في ذلك ، وسأورد شيئًا مما ورد في ذكر صفة البناء ومتعلقاته مما يتعلق بالبحث في المتن :

ملحوظة :

بالنسبة لمؤلفات علي بن عبد الله السمهودي (922) لا سيما خلاصة الوفاء والوفاء بما يجب لحضرة المصطفى ، تعتبر مرجع لعدد من الكتب ، منها المفقود ومنها المخطوط نحو :

1 - « أخبار المدينة » لعمر بن شبه النميري (262هـ) حسبت نصفه أو قريب منه مفقود .

2 - « تاريخ المدينة » لمحمد بن الحسن بن زبالة الذي ألفه سنة (199هـ) وهو مفقود ، والمؤلف من تلامذة الإمام مالك بن أنس .

3 - « تاريخ المدينة » لحي بن الحسين أو محي بن جعفر العبيدي (277هـ) وهو مفقود .

4 - « أخبار دار الهجرة » لرزين العبدري (535هـ) .

5 - « الروضة الفردوسية » ، و« منسك القاصد الزائر » ، كلاهما لمحمد الآقشهري (731هـ) .

6 - « عروة التوثيق في النار والحريق » لمحمد القسطلاني (686هـ) .

7 - « زبدة الأعمال وخلاصة الأشكال » لنصر الدين الأسفرائيني (712هـ) .

8 - « المحتار المذيل به على تاريخ ابن النجار » لابن سلام (774هـ) .

وفي صفة سقف المسجد ورقته ما ذكره السمهودي قال : عن ابن شهاب : كانت سواري المسجد في عهد الرسول جذوعاً من نخل ، وكان سقفه جريداً وخوخا ليس على السقف كثير طين إذا كان المطر سال المسجد طيناً إنما هو كهيئة العريش أي عريش النخل في المزارع وغيرها .

وجاء أن الرسول قال لما كلمه أصحابه في سقف المسجد أنه قال : « كلا! عريش كعريش موسى ، أو قال : ظله كظله موسى ، والأمر أقرب من ذلك ، قيل : وما ظله موسى؟ فقال : كان إذا قام أصاب السقف رأسه »[1] .

وجاء في الصحيحين ، من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه قال : « جاءت سحابة فمطرت فسال السقف ، وكان من جريد النخل ، فأقيمت الصلاة ، فرأيت رسول الله يسجد في الماء والطين ، حتى رأيت أثر الطين في جبهته »[2] .

وهذا الحديث أصلٌ عند أهل العلم في بابي الاعتكاف وليلة القدر ، وهذا كله يدل على تواضع بناء النبي لمسجده ، حيث بناه مما يبني به الناس بيوتهم ، لأنه نهى عن زخرفة المساجد وتزويقها ، وتشيِّد المساجد والمبالغة في عمارتها حتى تخرج عن معنى العبادة فيها والعبودية لله عز وجل بلا صوارف أو تشويش يشغل المصلي والمتعبد لله عز وجل في بيوت الله : المساجد .

ولئلا يشابه المسلمون الكفار من اليهود والنصارى وأضرابهم في زخرفة وتعظيم دور عباداتهم من الكنائس والبِيَع..وهذا أصل عظيم شريف قصد إليه الشارع في اعتزاز المسلم بدينه ، وعدم تشبهه وتقليده المنحرف عنه ليتحقق لله العبادة وحده لا شريك لهو وبلا شائبة البدع والخرافة!

---

(1) انظر « خلاصة الوفاء » ص213 ، و« رحله ابن بطوطة » 135/1 . وابن زبالة هذا هو محمد بن الحسن بن زبالة وهو من تلامذة الإمام مالك وقد ألف كتاباً في تاريخ المدينة ألفه سنة 199هـ . وهو من أهم الكتب في وصف عمارة المسجد النبوي وأقدمها لكنه للأسف مفقود ، وقد نقل منه وأكثر السمهودي في كتبه ومنها « خلاصة الوفاء » فهو المصدر الذي جمع أكثر النقول عنه . فلهذا عولنا عليه في كلام ابن زباله رحمه الله .

(2) أخرجه البخاري في كتاب الجماعة والإمامة ، باب هل يصلي الإمام عن حضر... 238/1 ، ومسلم في كتاب الصيام ، باب فضل ليلة القدر والحث على طلبها رقم 1168 .

بناء حجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن :

وبنى رسول الله حجرات زوجاته لما بنى المسجد ، قال ابن النجار : قال أهل السير ضرب رسول الله الحجرات ما بينه وبين القبلة والمشرق إلى الشامي -أي الشمال- ولم يضربها في غربيه ، وكانت خارجة عن المسجد مديرة به إلا من الغرب ، وكانت أبوابها شارعة في المسجد[1] . اهـ

وكانت قبلة المسجد في أول الأمر إلى بيت المقدس ستة عشر أو سبعة عشر شهراً ثم حولت إلى الكعبة بمكة .

ولم يكن في مسجده محراب بل كان بينه وبين الجدار قدر ممر شاة . وكذا كان بين المنبر والجدار قدر ما تجوزه الشاة[2] .

ولم يتخذ المحراب في المسجد إلا في عهد الوليد بن عبد الملك كما سيأتي إن شاء الله .

أما منبره فجاء وصفه في حديث سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنه ، وذلك أن رجالًا تجادلوا في المنبر مما عوده؟ فسألوه عن ذلك فقال : « والله إني لأعرف مما هو ، ولقد رأيته أول ما وضع ، وأول يوم جلس عليه رسول الله ، أرسل رسول الله إلى فلانة ، امرأة قد سماها سهل ، فقال : مري غلامك النجار أن يعمل لي أعواداً أجلس عليهن إذا كلمتُ الناس ، فأمرتْهُ ، فعَمِلها من طرفا الغابة ، ثم جاء بها ، فأرسلت إلى رسول الله »[3] .

وكان المنبر من ثلاث درجات ، وكان يهتز بالرسول إذا خطب واشتد في خطبته ، ثم زاده معاوية بن أبي سفيان كما سيأتي في الكلام على المنبر .

---

(1) انظر « أخبار مدينة الرسول » - المعروف بـ« الدرة الثمينة » - لابن النجار ص 60 وما بعدها .

(2) هذا في الصحيحين عن سهل بن سعد وسلمة بن الأكوع . أخرجه البخاري في كتاب سترة المصلي ، باب قدر كم ينبغي أن تكون بين المصلي والسترة 188/1 . ومسلم في كتاب الصلاة ، باب دنو المصلي من السترة رقم 508 ، 509 .

(3) هذا متفق عليه . أخرجه البخاري في كتاب الجمعة ، باب الخطبة على المنبر 310/1 ، ومسلم في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب جواز الخطوة والخطوتين في الصلاة رقم 544 . وانظر فتح الباري 461/2-465 .

توسعة مسجد النبي في حياته :

هذا العمار الأول للمسجد ، وقد وسعه رسول الله في السنة السابعة من الهجرة بعد فتح خيبر لما كثر المسلمون وزادت المؤنة بفتح خيبر حتى أصبح 100 ذراعاً ×100 ذراعاً ، وهو الموافق 250×250م2 تقريباً مع وضع الطين في سقفه وتكثيفه ، وأبقاه على ارتفاعه الأول سبعة أذرع . وكانت مساحته 2500م2 تقريباً .

وقد جعل فيه عليه السلام ثلاثة أبواب : باب عاتكة من الغرب ، وباب من الشمال ، وبابه عليه السلام الذي يدخل منه جهة حجراته .

والمقصود : أن عمارتي النبي للمسجد مرتين كانتا بشكل متواضع وغير متكلف ، فبناه كما هي بناية الناس لدورهم ، فلا زخرفة ولا تشيِّد ولا ارتفاعات ولا زينات ، وإنما كما صحَّ عنه : « عريش كعريش موسى » .

والأهم من ذلك أنه لم يدفن فيه أحداً من أصحابه رضي الله عنهم ، وقد مات في عهده خيرةٌ من كوكبتهم ، منهم : عمه حمزة ، وابنه إبراهيم ، وبناته : رقية وزينب وأم كلثوم وغيرهم رضي الله عنهم ، فلم يدفنهم في ناحية من نواح المسجد ، وإنما دفنهم مع عموم أصحابه في مقبرة البقيع .

كذلك أيضاً لم يوصِ أحداً من أصحابه أو آل بيته بأن يدفنوه في مسجده البتة!

بل ثبت عنه النهي عن ذلك كله ، ولعن فاعله في أحاديث كثيرة ، يأتي التنويه ببعضها وهذا أصل شريف وقاعدة عظيمة في درء الشرك بسدِّ أوسع أبوابه على المسلمين في القرون المتأخرة . والله المستعان .

المبحث الثاني : عمارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسجد وزيادته فيه

وكان هذا في السنة السابعة عشرة من الهجرة .

وسبب الزيادة ما رواه البخاري معلقاً قال : « باب بنيان المسجد . وقال أبو سعيد -هو الخدري رضي الله عنه- كان سقف المسجد من جريد النخل ، وأمر عمر ببناء المسجد : وقال : أَكنَّ الناس من المطر »[1]...

ومعنى أكِنُّ ، أي : أستر الناس وأحميهم من المطر ؛ وذلك أن الناس كثروا فاحتاج المسلمون إلى زيادة المسجد وتوسيعه ليسعهم لا سيما وقد وسعه النبي بعد فتح خيبر .

وقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : لولا أني سمعت رسول الله يقول : « ينبغي أن نزيد في مسجدنا ما زدت »[2] .

أما عن صفة بنائه فهو على نحو بناء النبي ، يدل لذلك ما في البخاري ، عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه قال : « كان المسجد على عهد رسول الله مبنياً باللبن ، وسقفه بالجريد ، وعُمُده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر وبناه على بنيانه في عهد رسول الله باللبن والجريد وأعاد عمده خشباً »[3] ، أي : من جذوع النخل .

وروى ابن النجار بسنده إلى ابن زبالة إلى مسلم بن خباب[4] أن النبي قال يوماً وهو في مصلاه : « لو زدنا في مسجدنا وأشار بيده نحو القبلة » ، فلما توفي عليه السلام وولى عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال : « إن رسول الله قال : لو زدنا في مسجدنا وأشار بيده نحو القبلة ، فاجعلوا رجلاً في موضع مصلى النبي ثم رفعوا يد الرجل وخفضوها

---

(1) علقه البخاري رحمه الله في الصحيح ، كتاب المساجد ، باب بنيان المساجد 171/1 .

(2) ذكر هذا الأثر السمهودي في الخلاصة ص 256 ، ونقل سبب الزيادة عن ابن سعد وغيره وانظر ص25-256 .

(3) هذا الحديث في البخاري وموضعه مع الحديث الذي قبله .

(4) هو مسلم بن السائب بن خباب ذكره ابن حجر في الإصابة 203/6 وذكر أنهم اختلفوا في صحبته ، بل وفي صحبة أبيه وأمه ثم رجح أنه تابعي وأنه يرسل .

حتى رأوا أن ذلك شبيه بما أشار رسول الله من الزيادة فقدم عمر القبلة »[1] .

فبنى عمر رضي الله عنه المسجد على هيئة بناء الرسول عليه السلام ، فجعل في وسطه صحن ، وجعل ارتفاعه أحد عشر ذراعاً ، وبنى أساسه بالحجارة إلى طول قامة رجل ، وكمله إلى سقفه باللبن والطين ، ثم جعل سقفه من الجريد والخوص والطين أو جعل فوق سقفه سترة بمقدار ثلاثة أذرع تقريباً ، وجلب إليه الحصباء من العقيق وفر .

وكانت توسعة رضي الله عنه من جهة القبلة وهي الجنوبية ومن الغرب ومن الشمال حتى أدخل في هذه التوسعة بعض بيوت الصحابة كالعباس ودار جعفر بن أبي طالب لمجاورتها المسجد .

وجعل للمسجد ستة أبواب ، فزاد ثلاثة على ما كان عليه زمن النبي وأبي بكر الصديق للحاجة إليها .

وبلغت أذرع المسجد بعد زيادة عمر نحواً من 140×120ذراعاً ، أي : بنحو 270×260م2 ، أي : بزيادة تقريبية نحو 1700م2 .

ولا بد من الإشارة إلى أنه لم يتعرض للزيادة من الجهة الشرقية التي فيها حجرة عائشة رضي الله عنها ، وهي المشتملة على قبر النبي وقبر صاحبه أبي بكر رضي الله عنه لا سيما ، وقد أخذ دوراً من الغرب والشمال لزيادته . وهذا مع كثرة الفتوح في عهده وتوفر المال .

وتجدر الإشارة أيضاً أن عمر الفاروق رضي الله عنه لم يتكلف ويزخرف بناء المسجد ، وإنما جعله كبناء النبي ، خلال التوسعة من جهاته الثلاث : القبلية « الجنوبية » والغربية والشمالية فقط .

لما لم يوسّع أبو بكر الصديق رضي الله عنه المسجد :

هذا السؤال جدير بالإجابة عليه ، وألخص أوجه الجواب عنه بالآتي :

1- قصر مدة خلافة أبي بكر الصديق رضي الله عنه ، فهي في سنتين وثلاثة أشهر .

2 - انشغاله بحروب الردة ، وتثبيت جمع الكلمة .

---

(1) انظر أخبار المدينة ص 277 ، والخلاصة ص 256 ، وتحقيق النصرة ص 46-47 .

3 - عدم وجود الحاجة لتوسعة المسجد عما كان عليه ، فلم يكثر المسلمون كثرة تستدعي ذلك ، كما هو السبب الرئيس لتوسعة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسجد .

4 - توافر الأموال من الخراج والغنائم في غزو فارس والروم ، فكان من آثار ذلك العناية بمسجد النبي وهو عاصمة الإسلام الجديرة بذلك ، والجدير بالذكر أن في خلافة أبي بكر رضي الله عنه لما حصل نخر في بعض جذوع النخل وهي أعمدة المسجد وسواريه ، أعاد البناء بجذوع أخرى ، كما رواه ابن عمر رضي الله عنهما في حديثه المشهور في بناء المسجد(1) .

موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من إدخال حجرة عائشة رضي الله عنها والحجرات في التوسعة :

وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يخف عليه شأن التوسعة من جهة حجرة عائشة وحجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن المجاورة لهاو ليوسِّع المسجد ، ويشتمل بناؤه على تلكم الحجرات ، فما الذي منعه من ذلك .

الذي منعه منه ما استقر في علمه وعلم الصحابة رضي الله عنهم من تحريم دخول القبور في بناء المساجد ، وشدة تحريم بناء المساجد على القبور .

كيف وقد صرح عمر رضي الله عنه بأنه لا سبيل إلى توسعة المسجد من جهة حجرات أمهات المؤمنين الشرقية ، حيث قال رضي الله عنه : « لا سبيل إليها » . وقد ثبت ذلك عنه بالإسناد الصحيح كما رواه ابن سعد والحافظ ابن عساكر وغيرهما(2) .

---

(1) رواه أبو داود في « السنن » في كتاب الصلاة ، باب في بناء المسجد (452) .

(2) انظر « الطبقات » لابن سعد 21/4 ، و« تاريخ دمشق » لابن عساكر 478/8 .
وصحَّح إسنادها السيوطي في « الجامع الكبير » 272/3 .
وانظر « وفاء الوفاء » للسمهودي 343/1 ، و« المشاهدات المعصومية عند قبر خير البرية » لمحمد سلطان المعصومي 43 .

المبحث الثالث : عمارة عثمان بن عفان رضي الله عنه وزيادته في المسجد :

وكانت في السنة التاسعة والعشرين(29هـ) وانتهت في سنة (30هـ) على الأرجح .

وقد وصف هذه العمارة الصحابي الجليل عبد الله بن عمر كما وصف في السابق عمارة والده رضي الله عن الجميع ، فقال : كان المسجد على عهد رسول الله مبنياً باللبن وسقفه الجريد وعمده خشب النخل ، فلم يزد فيه أبو بكر شيئاً ، وزاد فيه عمر : وبناه على بنيانه في عهد رسول الله باللبن والجريد وأعاد عمده خشبًا . ثم غيَّره عثمان فزاد فيه زيادة كثيرة ، وبنى جداره بالحجارة المنقوشة والقصة -هي الجص- وجعل عمده من حجارة منقوشة ، وسقفه بالساج[1] .

وكان سبب زيادة عثمان وعمارته للمسجد حاجة الناس إليها حيث كانوا يصلون في أيام الجمع في الرحاب خارج المسجد ، فشكوا إليه ضيق المسجد .

وذكر ابن النجار عن أهل السير أن عثمان شاور أهل الرأي من الصحابة رضي الله عنهم ، فاجتمعوا على أن يهدمه ويزيد فيه ، فصلى رضي الله عنه الظهر بالناس ، ثم صعد المنبر فحمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « أيها الناس إني أردت أن أهدم المسجد وأزيد فيه ، وأشهد أني سمعت رسول الله يقول : من بنى مسجداً بنى الله تعالى له بيتاً في الجنة ، وقد رأيت لي فيه سلفاً الإمام عمر بن الخطاب زاد فيه وبناه ، وقد شاورت أهل الرأي من أصحاب رسول الله على هدمه وبنائه وتوسعته فحسّن الناس ذلك ودعوا له »[2] .

لكن جاء في البخاري من طريق عبيد الله الخولاني أنه سمع عثمان بن عفان يقول عند قول الناس فيه حين بنى مسجد الرسول : « إنكم أكثرتم عليَّ ، إني سمعت رسول الله يقول : من بنى لله مسجداً بنى الله له بيتاً في الجنة » ، وجاء في مسلم من نفس طريق

---

(1) أخرجه البخاري وسبق عزوه إليه .

(2) « أخبار المدينة » ص 79-80 ، والخلاصة للسمهودي ص 260 وذكره عن يحيى بن الحسين أو يحيى بن جعفر العبيدي (277هـ) ، وهو له تاريخ المدينة أيضاً لكنه مفقود لكن حفظ لنا السمهودي بعضه في كتبه كما فعل في كتاب ابن زبالة .

البخاري بلفظه وكذا من طريق آخر عن محمود بن لبيد : « أن عثمان بن عفان أراد بناء المسجد ، فكره الناس ذلك ، فأحبوا أن يدَعَه على هيئته ، فقال : سمعت رسول الله يقول : « من بنى مسجداً لله....» الحديث[1] .

فهاهنا اختلاف في سبب الحديث ففي طريق البخاري ومسلم أنه حين بنى المسجد أكثروا عليه .

وفي الوجه الآخر لمسلم أنه : لما أراد عثمان بناء المسجد كره الناس ذلك وأحبوا أن يدعه على هيئته . أي على ما كان عليه بناء الرسول وبناء عمر . لكن حاول الحافظ ابن حجر الجمع بينهما بقوله : « ظهر بهذا أن قوله في حديث الباب (حين بنى) أي حين أراد أن يني »[2] .

وكان قد ذكر قبله ذلك قول ابن بطال وغيره وفيه « ...ثم كان عثمان والمال في زمانه أكثر فحسنه بما لا يقتضي الزخرفة ، ومع ذلك أنكر بعض الصحابة عليه كما سيأتي بعد قليل »[3] .

ثم ذكر قول البغوي في شرح السنة في سبب كره بعض الصحابة لعمارة عثمان فقال : « لعل الذي كره الصحابة من عثمان بناؤه بالحجارة المنقوشة لا مجرد توسيعه »[4] .

ونخلص من هذا أنه قد حصل شيء من الإنكار من بعض الصحابة في بناء عثمان رضي الله عنه للمسجد بالقصة التي هي الجس ونقشه الحجارة ، وجعله لسقف المسجد خشب الساج وهو خشب يجلب من الهند ، بدلًا من الجريد وسعف النخل .

وسبب الإنكار : هو تغير المسجد عن هيئته التي تركه عليها الرسول وصاحبيه ، ولما ورد من النهي عن زخرفة المساجد والتباهي بها كما سيأتي شيء منه .

هذا وقد اتخذ الغوغائية الخوارج من هذه التوسعة ذريعة للمثلية وذمِّ أمير المؤمنين عثمان

---

(1) أخرج البخاري الحديث في كتاب المساجد ، باب من بنى مسجدا 172/1 ، وأخرج مسلم طريقيه في كتاب المساجد ومواضع الصلاة ، باب فضل بناء المساجد رقم 533 .

(2) « الفتح » 648/1 عند الكلام على حديث البخاري : « من بنى مسجدا.... » .

(3) « الفتح » 644/1 عند الكلام على حديث ابن عمر في بناء الرسول وعمر وعثمان للمسجد وصفته .

(4) « الفتح » 648/1 ، وانظر شرح السنة 349/2 مع اختلاف في لفظ الفتح .

رضي الله عنه ، وأنَّى لهم ذلك! فهذه التوسعة بمشورة عثمان للصحابة رضي الله عنهم ، واستدلالاً بحديث النبي في فضل بناء المسجد ، فهذه التوسعة محمدة لعثمان رضي الله عنه ومنقبة له .

ونعود إلى عمارة ذي النورين عثمان بن عفان رضي الله عنه فقد كانت من الجهات الثلاث القبلية -الجنوبية- الغربية والشمالية دون التعرض للجهة الشرقية أبداً كتوسعة سلفه عمر رضي الله عنهما .

وجعل في المسجد كوة في المحراب[1] -الجهة القبلية- وجعل أعمدة المسجد الحجارة التي فيها أعمدة الحديد الرصاصي . حيث نخرت جذوع النخل التي كانت في البناء السابعة عليه كما رواه أبو داود عن عبد الله بن عمر قال : إن مسجد رسول الله كانت سواريه على عهد رسول الله من جذوع النخل أعلاه مضلل بجريد النخل ، ثم إنها نخرت في خلافة أبي بكر فبناها بجذوع النخل وبجريد النخل ، ثم إنها نخرت في خلافة عثمان فبناها بالآجُرَّ فلم تزل ثابتة حتى الآن[2] .

وكان المسجد على شكله القديم ، له صحن في وسطه والأردثة حواليه من ثلاث جهات .

وكانت زيادة عثمان رضي الله عنه بالأذرع 160×150 ذراعاً وهو بنحو 280×275 ، وأبقى على أبواب عمارة الخليفة عمر بن الخطاب رضي الله عنه .

لكن بلغت زيادته رضي الله عنه لا سيما من الجهة القبلية نحوا من 500م2 مع ما اشتمل ذلك من إدخال بعض الدور في المسجد .

---

(1) لفظ المحراب المراد به شرعاً هو مكان العبادة كما في قوله تعالى : (كُلَّمَا دَخَلَ عَلَيْهَا زَكَرِيَّا الْمِحْرَابَ) ، ولم يعرف المحراب الذي هو نحو بناء داخل القبلة إلا في آخر القرن الأول وعليه فالمراد بالمحراب هنا جهة صلاة الإمام من القبلة . ويرى بعض العلماء أن المحراب مشروع من حيث كونه مصلحة مرسلة ، ويرى آخرون بأنه مباح ، ويذهب بعضهم إلى أنه بدعة ، كما ذهب إليه السيوطي في رسالته « تحفة الأريب ببدعة المحاريب » .

(2) أخرجه أبو داود في سننه كتاب الصلاة ، باب في بناء المساجد 123/1 رقم 452 .

المبحث الرابع : عمارة الوليد بن عبد الملك بن مروان للمسجد

وكانت بعد سنة 88هـ لما حج الوليد ، وعهد بالإشراف على البناء لواليه على المدينة عمر بن عبدالعزيز رحمه الله . وذلك أن الوليد بعد حجه أرسل رسولاً إلى عامله على المدينة عمر بن عبدالعزيز بكتاب ؛ يأمره فيه : بإدخال حجر أزواج النبي في المسجد ، وأن يشتري ما في مؤخره ، ونواحيه ، حتى يكون مائتي ذراع في مائتي ذراع (200×20ذراعا) أي (210×100م) ويقول له : قدَّم القبلة إن قدرت -أنت تقدر لمكان أخوالك فإنهم لا يخالفونك- لأن قبلة القبر كانت داراً لآل عمر بن الخطاب مع نخل لهم ، فمن أبى منهم فمر أهل المصر فليقوموا له قيمة عدل ، ثم أهدم عليهم ، وادفع إليه الأثمان . فإن لك في ذلك سلف صدق عمر وعثمان[1] .

وفيه نرى أنه نصَّ على إدخال الحجرات ضمن محيط المسجد ، حيث لم يكتف بما فعله الخلفاء الراشدين من التوسعة من الجهات الثلاث : الجنوبية « وهي القبلة » ، والشمالية الغربية ، فالوليد بن عبد الملك أول من أدخل الحجرات في محيط المسجد النبوي!

أسباب عمارة الوليد للمسجد النبوي :

ذكر المؤرخون لبناء المسجد وتوسعته والزيادات عليه عدة عوامل أدت كلها ، أو بعضها إلى إحداث الزيادة من الوليد بن عبد الملك وإدخال الحجرات فيها ، مع أن إدخال في المسجد لم يزد فيه مساحة تستوجب التوسعة على المصلين لانشغال الجزء الأكبر من الجهة الشرقية للحجرات والقبور الشريفة .

ومن هذه العوامل :

1- بناء الوليد بن عبد الملك للجامع الأموي بدمشق عام 88هـ ، حيث بالغ في بنائه وأنفق عليه أموالاً كثيرة في زخرفته وتزيِّنه ، كما بنى مسجد قبة الصخرة ببيت المقدس واهتم به ، فكان أن أرسل إلى عامله على المدينة يأمره بهدم المسجد وتوسعته من جميع الجهات حتى يكون 200×200 ذراعاً .

---

(1) نص الرسالة من « تاريخ الرسل والملوك » ، للطبري 435/6 .

2 - كثرة المسلمين وضيق المسجد بهم لا سيما أيام المواسم كالحج ، استلزم بالمقابل توسعة المسجد ليناسب الزيادة في عدد المسلمين ، وأهل المدينة والمجاورين فيها .

3 - أن سبب الزيادة : هو إخراج الحسن بن الحسن بن علي بن أبي طالب وزوجته فاطمة بنت الحسين بن علي بن أبي طالب من بيت فاطمة رضي الله عنهم الذي كان شمال حجرة عائشة رضي الله عنها ، وكان الحسن يخرج من باب حجرة فاطمة إلى المسجد مباشرة عبر الباب الذي بينها[1] .

ويؤيد هذا السبب ما نقله السمهودي : عن ابن زبالة قال : « حدثني عبد العزيز بن محمد عن بعض أهل العلم قال : قدم الوليد بن عبد الملك حاجاً ، بينما هو يخطب على منبر رسول الله إذ حان منه التفاته ، فإذا بحسن بن حسن بن علي بن أبي طالب رضي الله عنهم في بيت فاطمة في يده مرآة ينظر فيها ، فلما نزل أرسل إلى عمر بن عبد العزيز فقال : لا أرى هذا قد بقي بعُد ، اشتر هذا الموضع وأدخل بيت النبي المسجد ، واسدده »[2] .

وكذا نقل خبراً نحوه عن يحيى بن الحسين العبيدي .

أقول وهذه الأسباب كلها محتملة ، ومتوقعة لا سيما مع عداء بعض بني أمية لبعض آل البيت من ذرية علي والحسن والحسين رضي الله عنهم وتنافسهم معهم ، وغيرتهم عليهم ، مما له شواهده التأريخية ، مع أني لا أرى فائدة متحققة بإدخال الحجرات إلى المسجد في توسعة المسجد للمصلين ، كما هو ملاحظ الآن ، فكيف يتصوره بالنسبة لذلك العصر .

أما عن بناء المسجد فإن الوليد كان قد بعث إلى ملك الروم يعلمه بعزمه على بناء مسجد الرسول يطلب إعانته على ذلك بالفعلة والموؤنة[3] .

ثم شرعوا في العمل في بناء المسجد بهدم الدور المجاورة له التي تقرر إدخالها فيه ، وكانت التوسعة من الجهات الأربع كلها ، ولا سيما الجهة الشرقية حيث أدخل حجرة عائشة التي فيها قبر الرسول وصاحبيه رضي الله عنهما وأدخل بيت فاطمة رضي الله عنها من

---

(1) ذهب إلى هذا الرأي المقدسي في « أحسن التقاسيم » ، بل جزم أن الوليد زاد في المسجد ولم يزده لله . انظره في « أحسن التقاسيم » في معرفة الأقاليم ص80 .

(2) السمهودي في « خلاصة الوفاء » ص 266-267 .

(3) سيأتي الكلام على الاستعانة بالروم من النصارى في بناء المسجد في موضع مستقل ولا بد من الإشارة إلى أن عمال الفسيفساء والزخرفة كانوا من القبط النصارى والروم .

شمالها .

وبنوا المسجد بالحجارة في الأساس ، وبنى جدره بالحجارة المنقوشة المتطابقة ، وجعل عليها الجص ، وجعل على الجدار الفسيفساء والمرمر حتى جعل البنائون يصورون فيه أشكال الشجر . وكانوا قد خمروا النورة سنة لأجل الفسيفساء . حتى أنه نقل السمهودي عن يحي العبيدي عن النظرين أنه قال : كان عمر بن عبد العزيز إذا عمل العامل الشجرة الكبيرة من الفسيفساء فأحسن عملها نقده ثلاثين درهماً . كذا نقل! والله أعلم .

هذا وقد جعلوا أعمدة المسجد من الحجارة المحشوة حديداً ورصاصاً ، وجعل سقفه من خشب الساج ، وموَّجه مع أعلى الأعمدة بالذهب .

ولما انتهوا إلى جدار القبلة دعا عمر بن عبد العزيز مشايخه من أهل المدينة من قريش والأنصار والموالي والعرب فقال لهم : تعالوا احضروا بنيان قبلتكم ، لا تقولوا عمر غيَّر قبلتنا ، فجعل لا ينزع حجراً إلا وضع حجراً . وهذا يدل على أن حضور هؤلاء المشيخة وشهودهم هو للقبلة فقط دون غيرها!

إحداثات الوليد بن عبد الملك في بنائه مسجد النبي :

لقد أحدث الوليد عفا الله عنه محدثات وبدع في عمارة مسجد النبي أنبه إلى أهمها ، ضمن ذلك :

1 - ومما أحدثه الوليد بن عبد الملك في عمارته هذه مع ما سبق من الزخرفة بالفسيفساء والمرمر والنقش بالجصّ وعلى الحجارة ، وهذا داخل فيما نهى عنه النبي من زخرفة المساجد وتشيدها .

2 - إحداثه الشرفات والمحراب في المسجد ، وذلك أنه لم يكن في المسجد محراب في عهد الرسول ولا في عهد خلفائه الراشدين الأربعة حتى اتخذه عمر بن عبدالعزيز في عمارة الوليد واحتياط له ، وكان المحراب عبارة عن تجويف في قبلة المسجد يشير إلى جهة القبلة ومكان صلاة الإمام ، فكانت بذلك سُنَّة في المساجد بعد ذلك .

ولا أدري ما المراد بالشرفات؟ هل هي الشرفات فإن كان المراد بها الطاقات والنوافذ فهذه لا مانع منها شرعاً كيف وهي مصدر ضوء وهواء للمسجد . أو المراد بها الشرفات جمع شرفة وهو ما يكون فوق البناء من زيادة على جهة الزخرفة والنضارة والتزينات . فهذه مكروهة شرعاً .

3 - ومما أحدثه الوليد في عمارته : المآذن الأربع التي أقامها من أطراف المسجد . وذلك أنه لم يكن للمسجد قبل ذلك مآذن ، وكانت عمارة المسجد كما أمر الوليد 200×200 ذراعاً .

وبلغت الزيادة التي زادها في هذه العمارة نحواً من 2350م2 ، وفي الجملة فإن الأمرين الذين أنكرهما الناس من الصحابة وكبار التابعين في هذه العمارة إدخال الحجرات في المسجد بما فيها القبر . والزخرفة والنقش بالمرمر والفسيفساء والجص والرصاص .

إلا أنه لا بد من الإشارة إلى أنه لما أُدخلت الحجرة احتاط عمر بن عبد العزيز لوضع القبر في المسجد فجعل الحجرة على خمسة أضلاع ثلاثة من الجنوب والشرق والغرب واثنان على شكل رأس مثلث متقابلين في جهة الشمال لأمرين :

أ - احترازاً من التشابه بين الحجرة والكعبة في كونها مربعة ، لما قد يورثه ذلك فيما بعد من اعتقادات عند الدهماء بالطواف بالقبر أو اعتقاد مما ثلثها للكعبة .

ب - حتى لا يستقبل أحد القبر الشريف لورود النهي عن الصلاة إلى القبور لأجله جعله من جهة قبلة الناس منحرفاً .

المبحث الخامس : إنكار السلف إدخال الوليد الحجرات في بناء المسجد

وهذا كان من أهل العلم مخرجاً من دخول القبر في الحجرة داخل المسجد ، ولئلا تضيع آثار بناء الرسول لبيوته وما كانت عليه من عدم الكلفة ، حتى يراها الناس فيزهدون برؤيتها عن الدنيا وعمارتها .

وقد ذكر ابن كثير صورة لهذا الإنكار في دخول الحجرات في توسعة المسجد بما سطَّره في تاريخه لما وصل كتاب الوليد بن عبد الملك يأمره فيها بإدخال الحجرات وما حول المسجد قال : « فجمع عمر بن عبد العزيز وجوه الناس والفقهاء العشرة وأهل المدينة ، وقرأ عليهم كتاب أمير المؤمنين والوليد فشقَّ عليهم ذلك ، وقالوا : هذه حجر قصيرة السقوف ، وسقوفها من جريد النخل ، وحيطانها من اللبن ، وعلى أبوابها المسوح -وهو غطاء من الشعر- وتركها على حالها أولى ؛ لينظر إليها الحجاج والزوار والمسافرون إلى بيوت النبي ، فينتفعوا بذلك ويعتبروا به ، ويكون ذلك أدعى لهم إلى الزهد في الدنيا ، فلا يعمرون فيها إلا بقدر الحاجة وهو ما يستر ويُكِّن ، ويعرفون أن هذا البنيان العالي إنما هو من أفعال الفراعنة والأكاسرة ، وكل طويل الأمل راغب في الدنيا وفي الخلود فيها .

فعند ذلك كتب عمر بن عبدالعزيز إلى الوليد بما أجمع عليه الفقهاء العشرة[1] المتقدم

---

(1) وهم الفقهاء السبعة المشهورون ومعهم ثلاثة غيرهم :

1 - عروة بن الزبير

2 - خارجة بن زيد

3 - عبيد الله بن عبد الله بن عتبة

4 - أبو بكر بن عبد الرحمن بن الحارث

5 - القاسم بن محمد بن أبي بكر

6 - سليمان بن يسار

7 - سالم بن عبد الله بن عمر

8 - أخوه عبيد الله

9 - عبد الله بن عامر بن ربيعة

10 - أبو بكر بن سليمان بن خيثمة .

هؤلاء الذين ذكرهم ابن كثير في « التاريخ » 79/9 ولم يذكر سعيد بن المسيب معهم وقد ذكره =

ذكرهم . فأرسل إليه يأمره بالخراب وبناء المسجد على ما ذكر ، وأن يعلى سقوفه . فلم يجد عمر بُدّاً من هدمها ، ولما شرعوا في الهدم صاح الأشراف ووجوه الناس من بني هاشم وغيرهم ، وتباكوا مثل يوم مات النبي ...ويحكى أن سعيد بن المسيب أنكر إدخال حجرة عائشة في المسجد ، كأنه خشي أن يُتخذ القبر مسجداً . والله أعلم »[1] .

وجاء نحو هذا عن عطاء الخراساني[2] .

ومما يجب أن يُعلم أن صنيع الوليد بن عبد الملك هذا إنما كان بعد موت الصحابة رضي الله عنهم ، فلم يكن يجرأ على هذا العناد بهذا الصنيع في عهد الصحابة رضي الله عنهم .

فقد نصَّ على ذلك الأئمة ، أن هذا الفعل من الوليد بإدخاله الحجرة في توسعته للمسجد كان بعد موت عامة الصحابة الذين كانوا بالمدينة ، كما قرره شيخ الإسلام ابن تيمية وتلميذه ابن عبد الهادي صاحب « الصارم المنكي »[3] .

والمشهور أن آخر الصحابة موتاً بالمدينة هو الصحابي الجليل سهل بن سعد الساعدي ، فقد نص الحافظ ابن حجر في « التقريب » على أن وفاته سنة 88هـ . والله أعلم .

أما في غير المدينة فقد مات أنس بن مالك رضي الله عنه بالبصرة سنة (93هـ) ، ومات أبو الطفيل عامر بن واثلة سنة (107هـ) بالعراق .

كما أنكر هذا الصنيع جملة من علماء التابعين في المدينة ، كما هو المشهور عن سعيد بن المسيب وعطاء وأبان بن عثمان بن عفان الذي قال للوليد لما فاخره في بناء المسجد وبناء عثمان وتوسعته له ، قال له أبان رحمه الله : « يا أمير المؤمنين بنيناه بناء المساجد ، وبنيته بناء الكنائس » .

=

غيره . انظر « فقهاء المدينة السبعة » لعبد المنعم الهاشمي ص 33-53 .

(1) انظر « البداية والنهاية » 9/79-80 ، وكذا أورده ابن جرير الطبري في تاريخه ، في حوادث شهر ربيع الأول .

(2) انظر « خلاصة الوفاء » ص 266 . وتحقيق « النصرة » ص 49 ، 50 .

(3) انظر « الجواب الباهر » لشيخ الإسلام ص 18 ، و« الصارم المنكي » لابن عبد الهادي ص 136 ، وقد نبه إلى هذه الشبهة والجواب عنها الشيخ لألباني بكلام جيد في كتابه الحافل « تحذير الساجد من اتخاذ القبور مساجد » 78-93 .

هذا وذكر اليعقوبي في تاريخه : أنه لما بدأ عمر بن عبدالعزيز بهدم الحجرات قام خُبيب بن عبدالله بن الزبير[1] إلى عمر بن عبد العزيز رحمة الله عليهما ، والحجرات تُهدم ، فقال : نشدتك الله يا عمر أن تذهب بآية من كتاب الله يقول : (إِنَّ الَّذِينَ يُنَادُونَكَ مِن وَرَاءِ الْحُجُرَاتِ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْقِلُونَ)[الحجرات:4] ، فأمَر به ، فضُرب مائة سوط ، ونُضح بالماء البارد فمات وكان يوماً بارداً . فكان عمر لما ولي الخلافة وصار إلى ما صار من الزهد يقول : من لي بخبيب؟[2] . وهذا النقل أنقله عن اليعقوبي بما فيه على ما عنده من تشيع . والله أعلم بثبوتها من هذه الجهة!

إنكار الزخرفة التي وجدت في المسجد :

سبق ذكر استعانة الوليد بن عبد الملك بالنصارى -وسيأتي تفصيله- واتخاذ الزخرفة في الجصِّ والمرمر والفسيفساء على حيطان المسجد ، وما نُقل عن عمر بن عبد العزيز أنه كان يعطي العامل الذي يرسم شجرة كبيرة من الفسيفساء ثلاثين درهماً .

وهذا صاحبه بطبيعة الحال الكلفة الزائدة في تكاليف بنائه ، فقد روى الحسن بن زبالة عن إبراهيم بن محمد الزهري عن أبيه : لما قدم الوليد المدينة حاجاً بعد فراغ المسجد ، جعل يطوف فيه وينظر إلى بنيانه ، فلما رأى سقف المقصورة ، قال لعمر : ألا عملت السقف كله مثل هذا؟ قال : إذاً تعظم النفقة جداً . قال : وإن .

وفي رواية لغيره : أتدري يا أمير المؤمنين كم أنفقت على جدار القبلة وما بين السقفين؟ قال : وكم؟ قال خمسة وأربعين ألف دينار ، قال : والله كأنك تنفقها من مالك[3] ؛ كناية عن عدم مبالاته بكثرة ما أنفق!!

ونحو هذا من التكاليف الزائدة في الزينة والزخرفة وكلفة البناء من الأمور المنهي عنها ، بل وهي معتبرة من علامات آخر الزمان كما في الأحاديث عن النبي □ .

ومما يدل على إنكار هذه الزخرفة من كبار التابعين ما جاء عن عروة بن الزبير رحمه الله

---

(1) ذكر ابن خياط في « تاريخه » أنه توفي سنة 93ه انظر « التاريخ » ص 306 ، وهو السنة التي انتهت بها عمارة المسجد .

(2) انظر « تاريخ اليعقوبي » 284/1 .

(3) ذكرهما السمهودي في « الخلاصة » ص 271 وابن النجار في « أخبار مدينة الرسول » ص84 .

لما بنى قصره في وادي العقيق قيل له : جفوت عن مسجد رسول الله فقال : « إني رأيت مساجدهم لاهية ، وأسواقهم لاغية ، والفاحشة في فجاجهم عالية ، فكان فيما هناك عماهم فيه عافية »[1] . فقوله : مساجدهم لاهية ، مما فيها من التشيِّيد والزخارف والمرمر والفسيفساء التي تشغل المصلي وتلهيه عن عبادته ، وقد استنكر هذه العمارة مما فيها أبان بن عثمان بن عفان رحمه الله وشبهها بعمارة الكنائس -كما سيأتي في أثر النصارى في العمارة- .

ومما وجد في هذه العمارة من الزخارف الكتابات على حيطان المسجد ونواحيه ، وهي من أشد الصوارف للمتعبد في المسجد . ومنها ما حكاه ابن النجار قال : « وكتب عمر بن عبدالعزيز الكتاب الذي في قبلة المسجد عن يمين الداخل من الباب الذي يلي دار مروان بن الحكم حتى انتهى إلى باب علي رضي الله عنه كتبه مولى لحويطب بن عبد العزى اسمه سعد ، والكتاب أم القرآن ومن أول سورة الشمس وضحاها إلى خاتمه قل أعوذ برب الناس...وهدم بيت فاطمة بنت رسول الله وأدخله في المسجد ، وكان ذلك في سنة إحدى وتسعين ، ومكث في بنيانه ثلاث سنين ، وكتب عمر في القبلة في صحن المسجد في الفسيفساء ما نسخته :

بسم الله الرحمن الرحيم ، لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، محمد عبده ورسوله ، أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله ولو كره المشركون ، أمر عبد الله أمير المؤمنين بتقوى الله وطاعته والعمل بكتاب الله عز وجل وسنة نبيه محمد وبصلة الرحم ، وتعظيم ما صغَّر الجبابرة من حق الله سبحانه ، وتصغير ما عظَّموه من الباطل ، وإحياء ما أماتوا من الحقوق وإماتة ما أحيوا من العدوان والجور وأن يطاع الله سبحانه ويعص العباد في طاعة الله ، فالطاعة لله سبحانه ولأهل طاعته ، لا طاعة لأحد في معصية الله يدعوا إلى كتاب الله سبحانه وسنة نبيه إلى العدل في أحكام المسلمين والقسم بالسوية في فيئهم ، ووضع الأخماس في مواضعها التي أمر الله سبحانه بها لذوي القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل »[2] .

---

(1) عروة مات سنة 94هـ ، وقد ولد سنة 23 . ترجمته في « السير » 427/4 و« تاريخ خليفة » بن خياط ص156 ، 306 . وهذه الرواية عنه ذكرها الذهبي في ترجمته ، وذكرها المراغي في « تحقيق النصرة » ص183 .

(2) انظر « أخبار مدينة الرسول » ص 83-84 .

واختم هذا بما ذكره الحافظ ابن حجر في شرح حديث ابن عمر في وصف بناء الرسول وعمر وعثمان قال : « وقال ابن بطال وغيره : هذا يدل على أن السُّنّة في بنيان المسجد : القصد وترك الغلو في تحسينه . فقد كان عمر بن الخطاب رضي الله عنه مع كثرة فتوحه وسعة المال عنده لم يغير المسجد عما كان عليه ، وإنما احتاج إلى تجديده لأن جريد النخل كان قد نخر في أيامه . ثم كان عثمان رضي الله عنه والمال في زمانه أكثر فحسنه بما لا يقتضي الزخرفة ، ومع ذلك فقد أنكر بعض الصحابة عليه...وأول من زخرف المساجد الوليد بن عبد الملك بن مروان وذلك في أواخر عصر الصحابة ، وسكت كثير من أهل العلم عن إنكار ذلك خوفاً من الفتنة »[1] .

ووقع هذا من الوليد في مسجد المدينة وقبة الصخرة ، والأموي بدمشق .

ودعوى السكوت من أهل العلم تحتاج إلى دليل لا سيما وأكثر ما يقع من نحو هذا قد يفوت على الكتبة والمؤرخين نقله أو نقل وتلف أو لم ينقل خيفة الفتنة...

---

(1) انظر « فتح الباري » 644/1 .

المبحث السادس : عمارة المهدي بن المنصور للمسجد النبوي

وكان ابتداء البنيان سنة 162هـ وفراغه سنة 165هـ ، وسببها أنه لما حجَّ المهدي سنة 161هـ ، فقدم المدينة واستعمل عليها جعفر بن سليمان بن علي بن عبد الله بن عباس ، وأمره بزيادة المسجد من الشمال إلى مائة ذراع دون باقي الجهات . واستوجب هذا إلحاق بعض الدور بالمسجد . وبلغت زيادته نحواً من 2450م2 .

وتبع المهدي من قبله في زخرفة المسجد لا سيما الزيادة التي زادها بالفسيفساء والزخرفة بها .

كما كتب في صحن المسجد كما فعل عمر بن عبد العزيز ما نسخته : « أمر عبدالله المهدي أمير المؤمنين أكرمه الله وأعز نصره بالزيادة في مسجد رسول الله □ وإحكام عمله ابتغاء وجه الله عز وجل والدار الآخرة ، أحسن الله ثوابه بأحسن الثواب والتوسعة لمن صلى فيه من أهله وأبنائه من جميع المسلمين ، فأعظم الله أجر أمير المؤمنين فيما نوى من حسنته في ذلك وأحسن ثوابه : بسم الله الرحمن الرحيم ، ثم كتب أم القرآن ، وعلى إثرها قوله تعالى : (إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ...) الآية ، ثم كتب : وكان مبتدأ ما أمر به عبد الله المهدي محمد أمير المؤمنين من الزيادة في مسجد رسول الله □ في سنة اثنين وستين ومائة وفرغ منه سنة خمس وستين ومائة ، فأمير المؤمنين أصلحه الله بحمد الله على ما أذن له واختصه به من عمارة مسجد رسول الله □ وتوسعته حمداً كثيراً . والحمد لله رب العالمين على كل حال » .

وهذه الكتابات في المساجد على هذا النحو مما فعله المهدي وقبله الوليد بن عبد الملك من الابتداع في الدين ، فضلاً عن كونها من زخرفة المساجد والتفاخر في بنائها .

ولقد عده بعض العلماء من الأمور المذمومة المُبعِدة عن الإخلاص[1] .

ولم يكن بعد المهدي في خلال الدولة العباسية توسعة نحو هذا ، إنما كانت ترميمات وتجديدات محدودة .

---

(1) « فتح الباري » 649/1 ، ونقله عن ابن الجوزي رحمها الله .

وقد وصف ابن عبد ربه هذه العمارة بالذات مع عمارة الوليد واحتمال من جاء بعدهما من جدد المسجد بقوله : «... وحيطان المسجد كلها من داخله مزخرفة بالرخام والذهب والفسيفساء ، أولها وآخرها ، وروؤس الأساطين مُذَهّبة عليها أكف منقشة مذهبه ، وكذلك أعقاب الأبواب مُذَهّبة أيضاً »[1] .

(1) نقل ذلك عن ابن عبد ربه المتوفى سنة (328هـ) . السمهودي في « الخلاصة » ص 270-271 .

المبحث السابع : عمارة السلطان قايتباي من المماليك وما فيها من المحدثات

حصل من عهد الخليفة العباسي المهدي إلى السلطان قايتباي أعمال تجديد وترميم وصيانة للمسجد من قبل الخلفاء والأمراء دون التعرض لزيادة المسجد .

وقد حصل للمسجد خلال هذه الفترة حريقان الأول سنة 654هـ بسبب أحد خدم المسجد وشمل الحريق جميع المسجد ولم يقدر الناس على إطفاء النار ، فأعمره المستعصم بالله وأهالي المدينة وبمساعدة عز الدين أيبك والسلطان بيبرس من مصر .

وكان العمل مقتصراً على التجديد وإزالة آثار الحريق وبعض الزيادات في البناء دون مساحة المسجد .

إلى أن وقع الحريق الثاني للمسجد بسبب صاعقة وقعت على المنارة ثم نشرت النار على باقي أجزاء المسجد سنة 886هـ .

فقام بعمارة المسجد وأرسل العمال من مصر مع المؤن والآلات وزاد فيه من الجهة الشرقية -جهة باب جبريل- بعد أن هدم المنارة الرئيسية جهة باب البقيع الآن ، وهدم بعض جدر المسجد .

ووسع المحراب العثماني ، وزخرفه وحصل عليه قبة كبيرة ، ثم تطورت حتى القبة الموجودة الآن الخضراء ، وجعل مقدم المسجد سقفاً من الخشب وعليه عقود الجص .

ومما أحدث في هذه العمارة أنه اتخذوا محراباً في المصلى النبوي وزخرفوه بالرخام الملون . ورخَّموا المسجد .

كما عملوا قبائاً عند باب السلام وزينوها بالألوان . واهتموا ببناء أبواب وما حواليها بالرخام الأبيض والأسود وكتابة الآيات عليها .

السلطان الأشرف قايتباي المملوكي أو من رفع القبة على قبر النبي :

ومما يلفت النظر في هذه العمارة ما ذكر من بنائه على الحجرة النبوية بقُبة كبيرة على

القبور : قبور النبي وقبري صاحبيه رضي الله عنهما مباشرة وما حولها . وكذلك كساؤه الغرفة النبوية وما حولها بالرخام المزيِّن ، والنهي عن هذا متجه كما في النصوص الواردة والنهي عن البناء على القبور وتجصيصها ورفعها . بل اتخاذها مساجد . معلوم مشهور في الصحيحين وغيرهما .

وكذا من الجدير بالذكر أن الأشرف قايتباي المملوكي عمَّم القباب على أبواب المسجد في أغلبه ، ومن ذلك القباب على المحراب العثماني ، والقباب على الأبواب ، كصنائع المماليك في بناء المساجد في زمنهم .

وكانت زيادة الأشرف قايتباي من الجهة الشرقية نحواً من 120م2 فقط .

ومن الجدير بالذكر أن لون هذه القبة على حجرات زوجات النبي ورضي الله عنهن ، كان اللون الأبيض ، ثم غيرها بعض ملوك الدولة العثمانية إلى اللون الأزرق ، ثم في سنة 1252هـ غيَّرها إلى اللون الأخضر ، هذا فضلاً عما تبع فيه من قبله وزاد في اتخاذ الزخرفة الواضحة وإحداث زينة الأبواب وبداخل المسجد .

قبر النبي والقبة الخضراء :

سبق لنا أن النبي دُفن وصاحبيه في حجرة عائشة رضي الله عنهم ، ومن ثم أدخل الوليد بن عبد الملك في عمارته هذه الحجرة في المسجد .

ولم تزل الحجرة بعد ذلك تحظى بعناية كل من جدد المسجد أو أعاد عمارته بأنواع شتى من الاهتمامات تجتمع كلها في تعظيم بنائها بما هو ثمين ، مع ظهور التكلف بالزخارف ونحوها . هذا والموجود على القبر النبوي الآن ثلاثة جدر .

1 - جدار بيت عائشة .

2 - والجدار الخماسي الذي بناه عمر بن عبد العزيز في عمارة الوليد وهو المشتمل على جميع الحجرات .

3 - والشبك الخارجي الظاهر الآن وهو من نحاس وحديد .

وعلمنا أن الجدار الثاني هو من عمارة الوليد .

لكن الشباك الخارجي أحدث فيما بعد . فقد ذكر المطري في « التعريف » أنه لما حجَّ السلطان الملك الظاهر بيبرس سنة 667هـ اقتضى رأيه أن يدير على الحجرة الشريفة درا

بزين من خشب ، فقاس ما حولها -أي الحجرة- بيده وقدره بحبال وحملها معه ، وعمل الأساطين التي تلي الحجرة إلى ناحية الشمال فإنه زاد فيه إلى متهجد الرسول ، وهذا المتهجد عُمر له فيما بعد محراب موجودة الآن خارج الشبك من جهة الشمال ، لكن لما افتتن فيه الناس في هذه الأزمان عمل عليه دولاب من خشب وضع للمصاحف فالحمد لله .

وهذا كله قبل بناء القبة الكبيرة على جميع الحجرات في عهد السلطان قايتباي المملوكي كما سبق التنويه عنه .

قال وكان طول الدار غربي نحو الكامتين . ثم في تاريخ 694هـ زاد الملك العادل زين الدين كتفا شباكاً دائراً عليه - على الشباك الخشبي الدار بزين- ورفعه حتى وصله بسقف الحجرة الشريفة . والله المستعان[1] .

ملاحظة وتنبيه :

وكان عمر بن عبد العزيز قد جعل سقف السور الذي وضعه على القبر دون السقف رأي سقف المسجد لما أمر الوليد بدخول الحجرات فيه بأربعة أذرع ، وجعل فوقه شباك من خشب إلى سقفه ، وأعيد هذا الشباك بعد الحريق سنة 654هـ[2] .

أما عن القبة التي وضعت على القبر النبوي . فإنه لم يكن في المسجد قباب حتى أقام الملك الناصر قلاوون الصالحي قبة صغيرة سنة 678هـ فوق المقصورة التي فيها قبر النبي ، وكانت دون سقف المسجد . ثم عمل قايتباي قبة أعلى منها وأكبر لما وسع المسجد وجدد عمارته بعد الحريق الثاني سنة 886هـ .

واستمر الوضع على هذا دون إعادة إعمار للقبة بل ترميم وتجديد وصبغها بالألوان الأبيض ثم الأزرق ، حتى عهد السلطان العثماني محمود الذي جدد عمارة القبة ورفعها إلى ما هي عليه الآن ، وكساها بألواح الرصاصي ، صيانة لها من الأمطار ، ودهنها باللون الأخضر فكانت القبة الآن التي أضحت شعاراً لمدينة الرسول [3] .

---

(1) انظر : « التعريف بما أسست الهجرة من معالم دار الهجرة » لجمال الدين محمد المطري المتوفى سنة (741هـ) ص 39 وما بعدها .

(2) انظر « تحقيق النصرة » للمراغي 81 وما بعدها .

(3) انظر « الوفاء » لما يجب للمصطفى ص 101 . و« خلاصة الوفاء » ص 305-306 إلى ص 317 ، و« الرحلة الحجازية » ص 244 . و« تحقيق النصرة » 81-85 ، و« اقتضاء الصراط =

هذا مع النهي الصريح عن ذلك أشد النهي كما في حديث جابر بن عبد الله قال : قال : « نهى أن يُجصَّص القبر وأن يُقعد عليه ، وأن يُبنى عليه » . رواه مسلم ، وفي زيادة لأبي داود والحاكم : « وأن يكتب عليه »[1] .

كما روى مسلم في صحيحه أيضاً عن أبي الهيّاج الأسدي قال : قال لي علي بن أبي طالب : « ألا أبعثك على ما بعثني عليه رسول الله أن لا تدع تمثالاً إلا طمسته ، ولا قبراً مشرفاً إلا سوّيته »[2] . والمشرف : المرتفع أو العالي ، فكيف بمن يجعل عليه قبة أو مقصورة ليكون مزاراً ومشتهراً؟ .

لأجل هذا ودفعاً للخطر العظيم على التوحيد المترتب على بناء القبب على القبور أزالت الدولة السعودية الأولى القباب الموجودة على البقيع[3] . بسبب دعوة الشيخ السلفية المباركة ، وذلك بعدما أخرجوا ما في الحجرة وحول القبر من السرج والفوانيس والقناديل والشمعدانات المعلقة ، لكن قَدِمَ إبراهيم باشا مسلطاً على هذه الدولة منع من إتمام ذلك بل وأعاد القباب التي هدمت على البقيع ورمم القبر والخضراء [4] . ولم تزل الدولة السعودية الأولى في عهد الإمام المجدد محمد بن عبدالوهاب وأمراء آل سعود القبة التي على حجرات النبي دفعاً للفتنة ، ودرءاً للمفسدة العظمى ولا سيما من قبل أعداء العقيدة الإسلامية الصحيحة من القبوريين والروافض وأحزابهم ، فهذا كله إعمال لقواعد الشريعة والأصول العلمية المرعية « بدرء المفاسد وأنه مقدم على جلب المصالح » وقاعدة : « ارتكاب أقل الضررين في سبيل دفع أعظمها » وأمثال ذلك .

وقد وضع السلطان قايتباي على القبة هلالًا من نحاس ، وكان قبل ذلك هلالًا على القبة

=

المستقيم » 679/2 .

(1) رواه مسلم في كتاب الجنائز ، باب النهي عن تجصيص القبر والبناء عليه رقم 970 والزيادة عند أبي داود في السنن كتاب الجنائز ، باب في البناء على القبور رقم 3226-216/3 والحاكم في المستدرك 370/1 ، وقال : صحيح على شرط مسلم ووافقه الذهبي .

(2) رواه مسلم في كتاب الجنائز ، باب الأمر بتسوية القبر رقم 969 .

(3) كانت في البقيع قباب على قبور فاطمة والعباس وجعفر بن أبي طالب وكانت أكبر القباب وعلى قبور أمهات المؤمنين رضي الله عنهم وعلى قبر مالك بن أنس رحمه الله .

(4) انظر « المدينة المنورة » علي بن موسى ص 66 .

تحت سقف المسجد[1] .

وتعدت الأهلة بعد ذلك إلى وصفها على منابر المسجد وغيره من المساجد .

وقد قام عدد من السلاطين العثمانيين والمماليك بعمارة المسجد وبرسمه لكن مع زخرفته من ذلك ما حصل من عهد سليم الثاني عام 980هـ الذي عمَّر أحد المحاريب غرب المنبر - كساه بالموازيك والذهب ووضع اسمه عليه ولا يزال موجوداً- وكذا ما حصل في عهد السلطان محمود عام 1223هـ من ترميم بعض جهات الحجرة وبعض الأساطين .

الأستار على جدار القبر النبوي :

وهي الستائر التي توضع على جدار الحجرة -الذي بناه عمر بن عبد العزيز رحمه الله- على سبيل التعظيم والزينة للقبر .

وقيل إن أول من وضع هذه الأستار وكسا الحجرة بها الخير زان أم هارون الرشيد في القرن الثالث الهجري ، فكانت بعد ذلك سنة للملوك والسلاطين ، وكانت كستها لها بالزنانير وشبائك الحرير[2] .

وفي هذا الصدد نقل السمهودي عن ابن النجار قوله : « ولم تزل الحجرة على ذلك حتى عمل أبو الحسين بن أبي الهيجاء صحن الملك الصالح وزير الملوك المصريين[3] ستارة من الدبيقي الأبيض وعليها الطروز والجامات المرقومة وخيطها ، وأدار عليها زناراً من الحرير الأحمر مكتوباً عليه سورة يس ، وأراد تعليقها على الحجرة ، فمنعه القاسم بن مهنا أمير المدينة وقال : نستأذن المستضيء بأمر الله ، فبعث إلى العراق يستأذن فجاءه الأذن ، فعلقها

---

(1) انظر « الوفاء لما يجب للمصطفى » ص 197 ، ولا منافاة لما ذكر من أن الهلال وضع سنة 946 في عهد الدولة العثمانية من نحاس .

(2) انظر « الرحلة الحجازية » ص 247 ، و« خلاصة الوفاء » ص 298-299 حيث نقل هذا الخبر عن رزين بن معاوية العبدري المتوفى سنة (535هـ) ، وألف كتاباً سماه « أخبار دار الهجرة » نقل منه السمهودي كثيراً . كما في كتبه ، وانظر كلام حمد الجاسر في مصادر السمهودي ص 40 في كتابه « رسائل في تاريخ المدينة » .

(3) من الدولة العبيدية الرافضية التي حكمت مصر في القرن الرابع الهجري والخامس إلى منتصف السادس حتى هزمتها الدولة الأيوبية وحلت محلها . انظر ما جدده أبو الحسين بن أبي الهيجاء في المسجد سنة 575 و« تحقيق النصرة » ص 140 .

نحو العامين . ثم جاءت من الخليفة ستارة من الأبريسم -وهو الحرير- البنفسجي عليها الطراز والجامات المرقومة وعلى طرازها اسم المستضيء بأمر الله[1] ، فشيلت تلك ، ونفذت إلى مشهد علي بالكوفة وعلقت هذه عوضها . فلما ولى الناصر لدين الله نفذ ستارة أخرى من الأبريسم الأسود فعلقت فوقها . فلما حجت الحاجة أم الخليفة وعادت إلى العراق عملت ستارة كالتي قبلها ونفذتها ، فعلقت على هذه ، ففي يومنا على الحجرة ثلاث ستائر بعضهن على بعض »[2] اهـ .

قال السمهودي : وفي عشر الستين وسبعمائة اشترى السلطان الصالح إسماعيل بن الناصر محمد قرية من بيت مال المسلمين بمصر ووقفها على كسوة الكعبة المشرفة في كل سنة وعلى كسوة الحجرة النبوية والمنبر في كل خمس سنين مرة . وذكره التقي الفاسي والزين المراغي إلا أنه قال في كسوة الحجرة ، في كل ست سنين مرة تعمل من الديباج الأسود مرقوماً بالحرير الأبيض ، ولها طراز منسوج بالفضة المذهبة دائر عليها إلا كسوة المنبر ، فإنها بتفصيص أبيض[3] .

وهكذا استمرت هذه البدعة في كل عهد ترسل فيه الستائر المزركشة بالخطوط الجميلة والزخارف والآيات... وهي الآن ستارة خضراء على طول الجدار يراها الناظر من خلف الشباك مكتوب عليها لفظ الجلالة تأتي من مصنع الكسوة في مكة والله غالب على أمره . ثم رأيت صوراً حديثة للحجرة عليها استاراً خضراء -على جدار الحجرة الذي بناه عمر بن عبد العزيز- وكذا كانت ستائر من قطيف مزينة الجوانب خضراء معلقة على الشبك الخارجي للحجرات لكنها أزيلت في هذا الزمان ولله الحمد والمنة .

---

(1) توفي المستضيء بالله سنة 575هـ ، وتولى بعده الناصر لدين الله إلى وفاته سنة 622هـ ، وفي عهد المستضيء سقطت الدولة العبيدة الرافضية بمصر . انظر « محاظرات في تاريخ الأمم الإسلامية والدولة العباسية » لمحمد الخضري بك ص 465-466 .

(2) انظر السمهودي في « خلاصة الوفاء » ص 298 ولم أجد هذا النقل عن ابن النجار في كتابه : « أخبار مدينة الرسول » ، فلعله وقع له نسخة أكمل من المطبوعة لدينا أو في كتاب آخر له .

(3) انظر « الخلاصة » ص 299 . و« تحقيق النصرة » ص 66 وكتاب التقي الفاسي (832) اسمه « منتخب الأخبار » وآخر اسمه « الرضاء والقبول في فضائل المدينة وزيارة الرسول » ، لم أقف عليهما .

المبحث الثامن : عمارة السلطان العثماني عبد المجيد للمسجد

وهذه المشهورة بالعمارة المجيدية وكانت من عام 1265-1277هـ حيث هدم جزءاً من المسجد وأعاد عمارته ، وأضاف إليه إضافة من الشمال بمساحة تقدر 1300م2 ، مع بعض مباني لخدمات المسجد في الجهة الشمالية ، وهي بالمناسبة عكس القبلة التي هي بالناحية الجنوبية .

وهذه العمارة هي أكبر عمارة للمسجد في الدولة العثمانية ، حيث جلب للمسجد الحجارة الحمراء بدلاً من الحجارة السوداء القديمة من جبل جهة ذي الحليفة بوادي العقيق بالمدينة . وأخذت للمسجد المئذنة جديدة سميت باسمه المئذنة المجيدية . وهو الذي جعل النحاس على الشباك الذي حول الحجرة الشريفة الذي في الجهة الجنوبية والتي تسمى الموجهة .

فجعله من نحاس وأطرافه من فضة وكتب عليه بالخط العربي لفظ الجلالة بعبارة « لا إله إلا الله الحق المبين ، محمد رسول الله الصادق الوعد الأمين » . وفي هذه العمارة شيدت القباب على جميع المسجد لكن أكبرها قبة المحراب العثماني وهي في الكبر دون القبة الخضراء ، وكانت بعض القباب ذوات نوافذ لدخول الضوء والهواء والمحاطة بشبابيك ملونة . وكانت تجاويف هذه القباب من الداخل مكتوبة داخلها بالآيات القرآنية ، وبعض أبيات القصائد المدحية كالبردة للبوصيري[1] وفيها أيضاً رسوم الأشجار وزهور وأنهار من نوع الفن التشكيلي .

ومما تتميز به هذه العمارة الزخرفة والنحت الموجودات في مقدمة المسجد لا سيما المحراب العثماني .

فقد كتب في مقدمة المسجد الآيات من القرآن ابتداءاً من باب السلام إلى البـــاب الآخر - وهو محدث حديثاً ، يُسمى بباب البقيع - فكتب فيه سورة الفتح كاملة وذلك بخط خطاط مشهور بتركيا اسمه : عبدالله أفندي بك[2] ، أوقفه السلطان عبدالمجيد على مجرد الكتابة ،

---

(1) وهو صاحب القصيدتين المشهورتين الأولى البردة والثانية الهمزية والغلو في جناب الرسول فيهما واضح ، بل والشرك أيضاً في الدعوة الاستعانة .

(2) كان أشهر خطاطي زمانه ، وهو من الأتراك ، وغالب كتاباته بخط الثلث الأستانبولي .

وكانت كتابة بالنحت ، كما كتب آيات من سورة البقرة .... وكتب تحتها أسماء الرسول وأحسـ وبلغت نحواً من 201 اسم[1]! فيها غلو وتحريف .

قال في الرحلة الحجازية في وصف هذا الخط وكتابته : « وفي سنة 1270هـ أمر السلطان عبدالمجيد خان -رحمه الله- بعمارته والزيادة فيه إلى الشمال فكان ذلك وتمت عمارته على ما هي عليه الآن ، ووشَّاه بالنقوش والزخارف التي تفوق حدَّ الوصف . وكتب على جداره مبتدئاً من باب السلام إلى الشرق سورة الفتح بالخط الثلث المجوف -لعله يقصد المنحوت- وفي السطر الذي تحته سورة أخرى بخط أرفع منه لكنه أكثر تعليقاً ، ومن تحته سطر آخر أصفر من الذي فوقه فيه أسماء النبي » [2] .

وقصيدة البردة مكتوبة في محيط قباب المسجد ، وفي الزوايا التي ترتكز عليها هذه القباب أسماء الله ورسوله وآله وبعض صحابته وكل ذلك مكتوب بخط غاية في الجمال ، وحسن تنسيقه وكمال وصفه . وحسبك أنه اثر ذلك الخطاط الشهير المرحوم عبد الله بن زهدي الذي أوفده السلطان عبدالمجيد إلى المدينة لهذه الغاية ، ومكث فيها بضعاً وعشر سنين يعمل في بيت رسول الله بما آتاه الله من إحكام في صناعته ، وبلوغ في مهنته .

قال : « وقد روى في مرآة الحرمين أن هذه العمارة صُرف عليها نحو مليون ليرة عثمانية » [3] .

وهذه الليرة العثمانية تبلغ ثلاثة أرباع جنيه مجيدي مما يدل على التكلفة الواضحة للعيان في بنائه ، ولا سيما زخرفته والخطوط فيه..حتى استمر العمل فيه ما يقارب اثنا عشر سنة .

---

(1) انظر « وصف المدينة المنورة » لعلي موسى ص 60 .

(2) يفهم من كلام محمد لبيب البتنوني في « الرحلة » أنه ثلاثة أسطر : سطر فيه سورة الفتح ، وآخر فيه بعض البقرة ، وثالث فيه أسماء النبي' . لكن جاء في كتاب « وصف المدينة المنورة » لعلي موسى الأفندي ص 60 قوله : « ففي الجدار المذكور من سورة البقرة وسورة (إنا فتحنا لك فتحا مبينا) ، والسطر الرابع أسماء سيدنا...فجعلها أربعة أسطر وهذا هو واقع الحال في المسجد . وعلي بن موسى كان حياً سنة 1320هـ على ما ذكر عبيد مدني في مقدمة « رسائل في تاريخ المدينة » ص 10 .

(3) انظر « الرحلة الحجازية » ص 245 ، وهي رحلة الخديوي عباسي حلمي سنة 1329هـإلى الحج وزيارة المدينة والحجاز . فأكف المؤلف تلك الرحلة وسطر فيها مشاهداته . .

وأضحى المسجد بهذه الصورة يشبه مساجد تركيا التي بناها سلاطينها فاهتموا بالعمارة والزخرفة والمباهاة بها حتى صارت مشاهد للسَّياح للفرجة والتزّين وإمتاع النظر بما فيها . هذا مع ما أحدثه فوق جدار الحجرة الخارجي من الكتابات والأبيات البدعية والشركية والتي سيأتي الحديث عنها مفصلاً في المحدثات الموجودة في عمارة المسجد إن شاء الله تعالى .

زخرفة المنبر النبوي :

كان النبي يخطب في مسجده وهو مستند إلى جذع نخلة . ثم لما كثر المسلمون احتاج إلى منبر يجلس عليه . فأرسل رسول الله إلى امرأة أنصارية كان لها غلامٌ نجارٌ فقال لها : مري غلامك النجار يعمل لي أعواداً أجلس عليهن . فعمل له منبراً من أثل الغابة . وهذا حديث متفق عليه .

وكان هذا في السنة الثامنة من الهجرة على الأرجح . فلما كان كذلك حنَّ الجذع الذي كان يستند عليه النبي إليه ، وسُمع له صوتاً كصوت الرضيع . قال جابر بن عبد الله رضي الله عنهما : كان جذع يقوم عليه النبي فلما وضع له المنبر سمعنا للجذع مثل أصوات العشار حتى ترك النبي موضع يده عليه وقيل ضمه . رواه البخاري[1] .

وقد ذكر ابن بطوطة أنه لما زار المدينة ، وصلى بالمسجد النبوي أنه استلم القطعة الباقية من الجذع وهي ملصقة بعمود قائم بين القبر والمنبر عن يمين مستقبل القبلة[2] .

ولم يزل منبره هذا والذي كان ثلاث درجات على هذا الوضع في عهد خلفائه الراشدين الأربعة رضي الله عنهم . حتى جاء في عهد معاوية بن أبي سفيان رضي الله عنه فزاده ست درجات فأصبح المنبر ذو تسع درجات . ولم يزل هكذا زمناً . والذي يدل عليه هذا أن منبر الرسول كان ضمن بزيادة معاوية ، ويشهد لهذا أن المهدي لما قال لمالك بن أنس أني أريد أن أعيده على حاله وعلى زمن النبي وخلفائه . قال له مالك : إنما هو من طرفاء الغابة ، وقد سمَّر إلى هذه العيدان وشُدَّ ، فمتى نزعته خِفتُ أن يتهافت ويهلك فلا أرى أن

---

(1) انظر « صحيح البخاري » ، كتاب الجمعة ، باب الخطبة على المبر 311/1 .

(2) انظر رحلة ابن بطوطة « تحفة النظار » 133/1 . لكن هذا معارض بما جاء عن أبي بن كعب أنه لما هدم المسجد للتوسعة أخذه عنده في بيته فبقي هناك حتى بلي ونخر . وجاء في مسند الدارمي أن النبيَ خيَّر الجذع بين غرسه في مكانه ، الذي كان فيه أو يدفنه ويغرسه في الجنة فاختار الثاني . والله أعلم بالصواب .

تغيره[1] . لهذا بقي المنبر على حاله عهوداً طويلة .

ولما احترق المسجد في الحريق الأول سنة 654هـ احترق المنبر معه ، فأرسل صاحب اليمن منبراً له من صندل ، ثم لم يزل الأمراء والسلاطين يجددون المنبر ويزيدون في عمارته وتجميله ونقشه وزخرفته ويتفاخرون في ذلك حتى الحريق الثاني للمسجد سنة 886هـ ، وبنا المسجد الأشرف قايتباي المملوكي فبنى سنة 888هـ منبراً من رخام وعظمه وكبره وجعل عليه الستور وزخرفه .

ثم أرسل السلطان مراد العثماني منبراً آخر وُصف بأنه أعجوبة ، من شدة جماله وحسن منظره وذلك سنة 998هـ[2] ، وهو المنبر الموجود الآن في المسجد النبوي وهو مليء بالزخارف والنقوش .

وقد وصفه علي بن موسى الأفندي فقال : وأما المنبر الشريف فإنه في الروضة من جهة الغرب ، وهو من أجمل المنابر المعمولة بالرخام ، في أعلى درجة من الزينة ، بيارقه الاثنين بالحجر المموه بماء الذهب على المخمل الأخضر ، وأعلامه من الذهب والفضة ، وفرشه من الخوج الأحمر ، وستارة بابه من جنس البيارق المذكورة ، هو للسلطان مراد خان ، لم يغيروا منه شيء زمن العمارة[3] .

---

(1) انظر « أخبار مدينة الرسول » ص 67 . و« الخلاصة » ص 234-235 .

(2) انظر وصفه في « الرحلة الحجازية » ص 241 ، وتوسعة الحرمين الشريفين ص 22-23 ، وقد نقل قايتباي إلى مسجد قباء لكنه أزيل وبدل في توسعة خادم الحرمين الآخيرة . وانظر « تحقيق النصرة » ص 60 وما بعدها .

(3) انظر « وصف المدينة المنورة » ص 62 ويعني بزمن العمارة ، العمارة المجيدية سنة 1277هـ .

المبحث التاسع :
التأثر بالحضارات[1] السابقة في عمارة المسجد النبوي وخاصة النصرانية

كانت العمارة في شبه الجزيرة ومناطقها على طبيعتها من غير كلفة ، فهي خالية من الترف والفخامة والزخرفة ، حيث كان البناء منبعثاً من طبيعة الجزيرة ومناطقها بآلاتها ومؤنتها .

فكانت بيوت الحضر من الطين واللبن ومسقوفة بجذوع النخل وعسيبها وجريدها فهذه هي جدرانها وأسقفها ، أما الأعمدة فكانت من جذوع النخل أو من جدر طينية كبيرة ، مع الأساس من الحجارة . وهذا الذي فعله الرسول □ في بناءه مسجده وبيوت زوجاته فيما بعد . وهو الذي فعلته قريش لما انهدمت الكعبة ، بنتها من المواد المتوفرة بمكة من الحجارة والطين . وهذا النوع من البناء لم يزل موجوداً في بعض مناطق الجزيرة كما في مدن نجد وقراها .

ولم تعرف الحصون والأبنية الكبيرة والقوية ذوات الشُرَف والجدر العالية إلا عند اليهود في المدينة وفي خيبر وفدك وفي نجران ، وكذا في بلاد اليمن من حواضرها الطبيعة تلك الأبنية التي تشبه المستعمرات والحصون فكان الاهتمام بالبناء على هذا النحو وغيره موجوداً عند أولئك .

وفي الوقت نفسه كانت المباهاة في العمران والأبنية والترف فيها والفخامة موجوداً عند الفرس والروم وبلاد الحبشة وبلاد اليونان ومصر .

ولما كانت الفتوحات الإسلامية قوية في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم وجد الاتصال بحضارات الساسانيين في فارس والحيرة والبيزنطين في الشام ومصر . فكان التأثر بتلك الحضارات والتلاحق بينها ظاهراً فيما بعد عند أمراء بني أمية في المجال العمراني خاصة .

---

(1) إن مصطلح الحضارة من المصطلحات الشائعة الاستعمال ، وهو من الألفاظ المحتملة لعدة معاني في الحقيقة ، لكنني أرى أنه عند إطلاقه وعدم تقيده ينصرف مباشرة إلى التقدم والتطور المادي والعمراني ، لدولة أو أمة معينة في بنيانها وقصورها وملاعبها ومعابدها وجسورها... الخ ، ولا نقصد به هنا الحضارة المعنوية التي هي العلم والدين أو الأخلاق ونحو هذا .

حيث اتجه الأمراء والخلفاء في أواسط الدولة الأموية إلى ناحية الاهتمام بالعمارة والزخرفة والمتفاخر فيها : بقصورهم ومدائنهم ومساجدهم ، وكان نتيجة ذلك الاتصال بأهل الحضارة العمرانية ممن قبلهم وكذا التطور في طرق البناء وأساليبه والزخرفة وتزين القصور والنحت بها ، واستخدام مواد ومؤن لم تكن معروفة في الجزيرة ، وسبب هذا كله تدفق الأموال على الدولة وانفتاح الدنيا عليهم كما أخبر به الصادق المصدوق وكذا الركون إلى الدنيا وطول الأمل فيها . . .

وكان اهتمام خلفاء وأمراء بين أمية بالأبنية والقصور وزخرفتها والمباهاة فيها واضحاً في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد وسليمان...لا تزال نرى اليوم آثاره مما خلفوه . وانتقل هذا الاهتمام بالأبنية وتزينها والمفاخرة والمباهاة بها إلى بناء المساجد كالجامع الأموي بدمشق الذي أنشأه الوليد بن عبد الملك ، ومسجد قبة الصخرة الذي أعاد عمارة مسجد قبة الصخرة وعظمها وابتدع ذلك فيها بما لم يحفظ عمن قبله من الخلفاء والصحابة وأهل العلم .

وفي هذا الصدد قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : « ...فلما كان في زمن عبد الملك ، وجرى بينه وبين ابن الزبير من الفتنة ما جرى كان هو الذي بنى القبة على الصخرة . وقد قيل أن الناس كانوا يقصدون الحج فيجتمعون بابن الزبير ، أو يقصدونه بحجة الحج ، فعظَّم عبد الملك شأن الصخرة ، بما بناه عليها من القبة ، وجعل عليها من الكسوة في الشتاء والصيف ، ليكثر قصد الناس للبيت المقدس فيشتغلوا بذلك عن قصد ابن الزبير والناس على دين الملك . وظهر ذلك الوقت تعظيم الصخرة وبيت المقدس ما لم يكن المسلمون يعرفونه بمثل هذا ، وجاء بعض الناس ينقل الأسرائيليات في تعظيمها حتى روى بعضهم عن كعب الأحبار عند عبد الملك بن مروان وعروة بن الزبير حاضر : إن الله قال للصخرة : أنت عرشي الأولى فقال عروة : يقول الله تعالى (وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ) ، وأنت تقول : إن الصخرة عرشه؟ وأمثال هذا . ولا ريب أن الخلفاء الراشدين لم يبنوا هذه القبة ولا كان الصحابة يعظمون الصخرة وينوون الصلاة عندها ، وفي تخصيصها بالتعظيم مشابهة لليهود »[1] .

فالمقصود أن في هذه الفترة اشتغل الخلفاء بتعظيم المساجد وزخرفتها والمبالغة في تعظيم

---

(1) انظر كلام الشيخ رحمه الله في « الاقتضاء » 2/810-811 . وانظر إلى كلام لابن كثير في تفسير آية الكرسي حول هذا الموضوع 1/308-310 .

عمارتها وتزينها بالمرمر والفسيفساء على الحيطان وفي السقوف بأشكال أشجار وزهور وأودية وأنهار ومناظر من هذا القبيل . ووجد هذا بالفعل في الجامع الأموي ومسجد قبة الصخرة بل كان من نتيجة ذلك ما حصل في عمارة المسجد النبوي والزيادة فيه في عهد الوليد بن عبد الملك سنة 88هـ ، فجعل فيه ما سبق ذكره من أنواع المباهاة والزخارف ، ومما يدل لهذا ما ذكره ابن النجار قال : « ولما قدم الوليد ابن عبد الملك حاجاً بعد فراغ عمر بن عبد العزيز من المسجد جعل يطوف فيهو وينظر إلى بنائه فقال لعمر بن عبدالعزيز حين رأى سقف المقصورة إلى عملت السقف كله مثل هذا ، فقال يا أمير المؤمنين : إذاً تعظم النفقة جداً ، أتدري كم أنفقت على عمل جدار القبلة وما بين السقفين؟ قال : وكم؟ قال : خمسة وأربعين ألف دينار -وقال بعضهم أربعين ألف دينار- قال : والله كأنك أنفقتها من مالك ، وقيل كانت النفقة أربعين ألف مثقال .

قالوا وكان معه أبان بن عثمان بن عفان فلما استنفذ الوليد النظر إلى المسجد التفت إلى أبان[1] ، فقال : أين بنياننا من بنيانكم؟! وكأنه يعرض ببناء أبيه عثمان رضي الله عنه ، فقال أبان : بنيناه بناء المساجد وبنيتموه بناء الكنائس »[2] .

وسبب ذلك أنه ابتدع في المسجد أموراً لم يفعلها من سبقه من الراشدين فكان على خلاف ما بناه الصحابة من مساجد كعثمان في المدينة ، ومسجد علي في الكوفة ، وجامع عمرو بن العاص في الفسطاط بمصر ، وعامة مساجد ذلك الوقت الذي لم تتمكن فيه أسباب الترف ومظاهر الزخرفة وأنواع الزينة التي هي من علامات آخر الزمان في اتخاذها في المساجد . فجاءت كلمة أبان بن عثمان واضحة وفاصلة فيما بين عمارة الوليد ومن قبله من الرسول إلى صحابته الذين عمروا مسجده ووسعوه . وفي كلمة أبان أيضاً إشارة إلى أثر النصارى في عمارة المسجد . وذلك أنه لما بدا للوليد عمارة مسجد الرسول وتوسعته أرسل إلى ملك

---

(1) أبان بن عثمان بن عفان رحمه الله قال عنه الذهبي ، الإمام الفقيه الأمير . وذلك أنه كان أميراً على المدينة وهو من فقهاء المدينة العشرة ، حيث عدَّه يحيى بن سعيد القطان منهم مع ابن المسيب وسائرهم . وعن عمرو بن شعيب قال : ما رأيت أحداً أعلم بحديث ولا فقه من ابان بن عثمان . مات سنة 105هـ . انظر « السير » 301/4 ، و« البداية والنهاية » 64/9 ، و« تاريخ خليفة بن خياط » ص 293 ، 296 ، 336 .

(2) ذكره ابن النجار في « أخبار مدينة الرسول » ص 84 ونقلها السمهودي عن يحيى العبيدي (277) في تاريخه . انظر « الخلاصة » 271 ، وكذا « تحقيق النصرة » ص 49 .

الروم وقال له : إنا نريد أن نعمر مسجد نبينا الأعظم -وفي بعض الروايات أنه أمره أمراً بالإرسال- فأعنا بعمال وفسيفساء ، فبعث إليه ثمانين عاملاً : أربعين من الروم وأربعين من القبط وثمانين ألف مثقال وبأحمال من الفسيفساء . وبأحمال من سلاسل القناديل[1] .

ومما يدل له أيضاً ما نقله السهمودي عن الواقدي قال : حدثني عبد الله بن يزيد قال : كان عمل القبط مقدم المسجد وكانت الروم تعمل ما خرج من السقف ، جوانبه ومؤخره ، فسمعت سعيد بن المسيب يقول : عمل هؤلاء أحكم يعني القبط[2] .

ومن الشواهد على أثر النصارى في عمارة المسجد ما ذكر الحسن بن زبالة في تاريخه قال : فبينا العمال يعملون في المسجد إذ خلالهم . فقال بعض عمال الروم : ألا أبول على قبر نبيهم فتهيأ لذلك فنهاه أصحابه ، فلما همّ بذلك اقتلع ، فألقى على رأسه فانتثر دماغه وأسلم بعضهم .

قال وعمل أحدهم على رأس خمس طاقات في جدار قبلة صحن المسجد صورة خنزير ، أمر به عمر فضربت عنقه[3] . اهـ .

وسبق لنا أن عمر بن عبد العزيز كان يعطي العامل الذي يعمل شجرة كبيرة من الفسيفساء يعطيه ثلاثين درهماً[4] .

إذاً من خلال ما تقدم أستطيع القول إن ما دخل على المسلمين في زخرفة المساجد والمباهاة بها هو من التأثر بالنصارى واتباع سنتهم وفي هذا علمٌ لثبوته □ .

---

(1) ذكر هذا الخبر جمع من المؤرخين منه : نقل هذا السمهودي في « الخلاصة » ص 269-270 عن الحسن بن زبالة وعن يحيى العبيدي . وذكره البلاذري في « فتوح البلدان » ص13 ، واليعقوبي في « تاريخه » 284/2 ، والطبري في « تاريخه » 436/6 ، والمقدسي في « أحسن التقاسيم » ص 81 ، والمراغي في « تحقيق النصرة » ص 49 ، وابن كثير في « البداية » 80/9 ، وابن بطوطة في « رحلته » 136/1-137 ، والحموي في « معجم البلدان » 87/6 ، وابن خلدون في « مقدمته » 443/1 ، وذكر أن الوليد ألزم ملك الروم بذلك ، وغيرهم .

(2) ذكرها في « الخلاصة » ص 271-272 .

(3) نقله عنه السمهودي ص 270 . وقصة الرومي ذكرها المقدسي (375) في « أحسن التقاسيم » ص 81 .

(4) ذكرها يحيى العبيدي ونقلها عنه السمهودي ص 270 .

الخاتمة : توصيات واقتراحات

بعد هذا التطواف في قصة عمارة المسجد من لدن رسول الله حتى هذا الوقت ودلالاتها العقدية ، وتناولت بالرد والبيان على شبهة اشتمال المسجد على حجرات النبي المتخذ ذريعة عند المخالفين لبناء المساجد على القبور والأضرحة ، وما أُحدث في بناء المسجد على مرِّ هذه العصور مما ذكر ، فإني أبدى بعض المقترحات التي بدت لي من خلال الموضوع ومشاهداتي للمسجد وعمارته على الطبيعة :

وقبل ذلك أود أن أثني على الجهود الطيبة التي سعت إلى فتح باب البقيع المقابل لباب السلام الذي وسَّع أولاً على المسلمين . ومنع ثانياً أو خفت من الطواف على قبر الرسول والذي رأيته يتكرر من الخرافيين في مواسم الحج .

1- أرى أن تجعل شرقي الحجرة وهي مسافة قصيرة إلى الجدار مع شماليها إلى ما يسمى بدكة أهل الصفة التي هي الآن مرتع لأهل البدع من الصوفية وغيرهم الذي يجمعهم الغلو في الرسول لا سيما بعد أن ضايقهم المشايخ داخل الحرم العثماني بدروسهم .

أتمنى أن يجعل على تلك المنطقة جداراً ولو من خشب حتى تكون مكاتب لهيئة المسجد النبوي حتى تكون قريبة منها من جهة ، وحتى يكون فصل الشباك والحجرة وجدرها عن الناس ، وحتى تكون الحجرة خارج المسجد الذي يصلى فيه ولو حكماً لأن الصلاة هنا ستكون من جنوب وغرب الحجرة فقط ، أما شرقها وشمالها فهو مفصول عن المصلى بهذا الحائط والذي أرى أن يبدأ من أطراف الدكة المسماة بدكة أهل الصفة إلى جدار الحجرة مع إدخال محيط باب جبريل في هذا الحائل . وهذا لو تم أرى أنه سيخفف عبئاً كبيراً تجاه تغيِّر المنكرات الموجودة هناك من : التمسح بدار بيت فاطمة ، والصلاة عند موضع محراب التهجد ، ومنعاً للطواف إلى حدٍّ كبير وإبعاداً لأهل البدع عن تجمعهم بذلك المكان .

2 - طمس الأبيات الشعرية من قصائد المدح المكتوبة في محيط الحجرة وعلى الاسطوانات وعدم تجديدها بالرخام الحديث حماية لجناب التوحيد ودرءاً لشر الشرك والتوسل والاستغاثة بالرسول في مقبرة وهو ميت .

3 - أرى إزالة الجدار العثماني المجيدي في قبلة المسجد وتوسيع مقدمة المسجد إلى الجنوب حتى تتسع تلك المنطقة للمصلين من جهة ، وللتوسيع على الزائرين للرسول

وصاحبيه حيث نرى زحاماً هائلاً أيام المواسم والمناسبات لضيق منطقة المواجهة على كثرة الناس . والناس في ازدياد مع مرور الأيام . وذلك سيكون من الأعمال الجليلة الممدوحة عند الله أولاً ، ثم عند الناس ؛ لتحقق عدة مصالح بها منها : إزالة الزخرفة والكتابات عن قبلة المسجد ، وتوسعة على المصلين ، وعلى الزائرين . ولنا في هذا سلف صدق عمر وعثمان اللذين قدما المحراب والقبلة على قبلة الرسول عليه السلام توسعة للمسجد . فيا حبذا تبييِن هذا لخادم الحرمين وهو -ولله الحمد- من السابقين لمثل هذه الأمور .

4 - طمس أسماء الصحابة والأئمة الاثني عشر جميعهم من الحصوتين دفعاً للمفاسد المترتبة على وجودها . كذلك عدم تجديد طلاء القبة الخضراء وإزالة النحاس الذي عليها كحد أدنى .

5 - أرى تكوين لجنة متخصصة من أهل العلم المعروفين بسلامة المعتقد وصدق التوحيد لدراسة حاجة المسجد النبوي الشريف . وتتبع ما فيه من البدع المحدثات ذات الخطر الواضح على الدين والعقيدة ، ومتابعة منفذ مشروع توسعة خادم الحرمين في تجديداته داخل المسجد المجيدي وفي التوسعة الجديدة .

هذا ما لزم وصلى الله وسلم على عبده ورسوله نبينا محمد وآله وصحبه أجمعين . والله أعلم .

قائمة المصادر ذات العلاقة المباشرة بالبحث

- أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم = لأبي عبد الله المقدسي (375) طبع مطبعة ليدن ، ط2 ، سنة 1919م .
- الأخبار الطوال = أبي حنيفة الدينوري(ت282هـ) ت عبد المنعم عامر ، نشر وزارة الثقافة بمصر عام 1960م .
- أخبار مدينة الرسول ويسمى بالدرة الثمينة = ابن النجار ت صالح محمد جمال نشر مكتبة الثقافة ط1 بمكة عام 1366هـ .
- الإصابة في تمييز الصحابة = ابن حجر العسقلاني دار الكتب العلمية .
- إعلام الساجد بأحكام المساجد = لبدر الدين الزركشي طبع وزارة الأوقاف المصرية .
- اقتضاء الصراط المستقيم = ابن تيمية ت د . ناصر العقل طبع مؤسسة العبيكان عام 1404هـ .
- البداية والنهاية = ابن كثير دار الكتب العلمية عام 1405هـ .
- تاريخ أربل = ابن المستوفي (637) ت سامي بن السيد نشر دار الرشيد بالعراق عام 1980م .
- تاريخ خليفة بن خياط (240) ت د . أكرم العمري نشر دار طيبة عام 1405هـ .
- تاريخ الخميس في أحوال أنفس نفيس = حسين بن محمد البكري مصورة عن طبعة مصر عام 1283هـ .
- تاريخ الرسل والملوك = للطبري (310) ت محمد أبو الفضل إبراهيم دار المعارف بمصر .
- تاريخ اليعقوبي (284) ، دار بيروت عام 1400هـ .
- تحقيق النصرة بتلخيص معالم دار الهجرة = للزين المراغي (816) ت محمد عبد الجواد الأصمعي ط1 عام 1374هـ .
- التعريف بما آنست الهجرة من معالم دار الهجرة = لمحمد بن أحمد المطري (741)

نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة عام 1402هـ .

- تفسير القرآن العظيم = لابن كثير مصورة دار الفكر عن الطبعة المصرية .
- توسعة الحرمين الشريفين إصدار عن وزارة الأعلام .
- خلاصة الوفاء بأخبار دار المصطفى = علي بن عبد الله السمهودي (922) نشر المكتبة العلمية بالمدينة المنورة ط سنة 1393هـ .
- رحلة ابن جبير صادر دار بيروت ط عام 1184هـ .
- رحلة ابن بطوطة المسماة ، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الاسفار ت د . المنتصر الكتاني مؤسسة الرسالة ط4 1405هـ .
- الرحلة الحجازية = محمد لبيب البتنوني ، القاهرة ط2 عام 1329هـ . بمطبعة الجمالية بمصر .
- رسائل في تاريخ المدينة بتقديم حمد الجاسر نشر دار اليمامة ، ويشمل على ستة كتب ورسائل هي :
- 1 - وصف المدينة المنورة لعلي موسى الأفندي .
- 2 - التحفة اللطيفة في عمارة المسجد النبوي وسور المدينة الشريفة = محمد بن خضر الرومي الحنفي (948) .
- 3 - الوفاء بما يجب لحضرة المصطفى للسمهودي .
- 4 - حوادث تتعلق بالحجرة النبوية .
- 5 - وضع الأهلة فوق القبة ومنابر الحرم المدني .
- سنن أبي داود ت محمد محي الدين عبد الحميد ، المكتبة العصرية .
- سنن النسائي ، دار الكتب العلمية بيروت .
- سير أعلام النبلاء = للذهبي نشر مؤسسة الرسالة ط1 ، 1401هـ .
- شرح السنة = للبغوي ت الشاويش وشعيب الارناؤط نشر المكتب الإسلامي ط1 ، 1400هـ
- صحيح البخاري ، ترتيب مصطفى ديب البغاء طبع بيروت .

- صحيح سنن ابن ماجه = تصحيح الألباني طبع المكتب الإسلامي .
- صحيح مسلم ، ت محمد فؤاد عبد الباقي ، دار إحياء التراث بيروت .
- العبر وهو مقدمة ابن خلدون = ضبط خليل شحادة ، دار الفكر بيروت ط1 ، 14011هـ .
- فتح الباري بشرح صحيح البخاري = ابن حجر ، مراجعة محب الدين الخطيب ، دار الريان ، القاهرة ط1 عام 1407هـ .
- فتوح البلدان = للبلاذري (279) ، مكتبة الهلال بيروت ط1 عام 1403هـ .
- فقهاء المدينة السبعة = عبد المنعم الهاشمي ، دار ابن كثير دمشق .
- محاضرات تاريخ الأمم الإسلامية ، الدولة العباسية = محمد الخضري بك نشر المكتبة التجارية الكبرى بمصر .
- مساجد السيرة النبوية = د . سعاد ماهر الهيئة المصرية العامة لكتاب عام 1987م .
- معجم البلدان= ياقوت الحموي (621) دار صادر بيروت عام 1404هـ .
- موجز الكلام عن مكانة المدينة والمسجد النبوي في الإسلام = الشيخ عبد الله الزاحم ، مطابع لنا بالمدينة .
- **البحوث والمقالات في المجلات والدوريات** :
- إزالة اللبس حول قبر النبي = الشيخ محمد علي عبد الرحيم ، مجلة التوحيد ، جماعة أنصار السنة بمصر عدد 1 محرم 1408هـ .
- تاريخ المسجد النبوي = أحمد حمزة ، مجلة لواء الإسلام . العدد العاشر جمادى الثانية 1370هـ ص 788-792 .
- التجديد والتوسيع في الحرم النبوي = خطاب محمد ، مجلة لواء الإسلام . العدد الثامن ، ربيع الثاني 1375هـ ص 510-515 .
- المسجد النبوي ورحلته مع الزمن = عبد الغني محمد ، مجلة الوحي الإسلامي الكويت عددي محرم وصفر 181-182 .
- مسجد المدينة في حدائق الكتب الثمينة = رشيد بوروية .
- من مصادر تاريخ الجزيرة العربية ندوات = جامعة الملك سعود طبع مطابع جامعة

الرياض 1399هـ .

- المدينة المنورة طيبة الحجاز = مصطفى نبيل ، مجلة العربي ، الكويت عدد 252 ذي القعدة 1399هـ .

فهرس الموضوعات

المقدمة :..... 1

تمهيد : زخرفة المساجد وتزويقها وحكمها في الإسلام..... 4

المبحث الأول : بناء النبي لمسجده بالمدينة :..... 8

بناء حجرات أمهات المؤمنين رضي الله عنهن :..... 11

توسعة مسجد النبي في حياته : 12

المبحث الثاني : عمارة عمر بن الخطاب رضي الله عنه للمسجد وزيادته فيه..... 13

موقف عمر بن الخطاب رضي الله عنه من إدخال حجرة عائشة رضي الله عنها والحجرات في التوسعة :..... 15

المبحث الثالث : عمارة عثمان بن عفان رضي الله عنه وزيادته في المسجد :..... 16

المبحث الرابع : عمارة الوليد بن عبد الملك بن مروان للمسجد 19

أسباب عمارة الوليد للمسجد النبوي :..... 19

إحداثات الوليد بن عبد الملك في بنائه مسجد النبي :..... 21

المبحث الخامس : إنكار السلف إدخال الوليد الحجرات في بناء المسجد .. 23

إنكار الزخرفة التي وجدت في المسجد :..... 25

المبحث السادس : عمارة المهدي بن المنصور للمسجد النبوي 28

المبحث السابع : عمارة السلطان قايتباي من المماليك وما فيها من المحدثات..... 30

السلطان الأشرف قايتباي المملوكي أو من رفع القبة على قبر النبي :..... 30

قبر النبي والقبة الخضراء :..... 31

ملاحظة وتنبيه :..... 32

الأستار على جدار القبر النبوي : 34

المبحث الثامن : عمارة السلطان العثماني عبد المجيد للمسجد..... 36

زخرفة المنبر النبوي :..... 38

المبحث التاسع : التأثر بالحضارات السابقة في عمارة المسجد النبوي وخاصة النصرانية 40
الخاتمة : توصيات واقتراحات 45
قائمة المصادر ذات العلاقة المباشرة بالبحث..... 47
فهرس الموضوعات..... 51